٣ ر.س

نحو ترشيد الصحوة ٣

حتى لا تغرق السفينة

سلمان بن فهد العودة

دار الوطن للنشر



سلمان بن فهد العودة

دار الوطن للنشر

الرياض ـ شارع العليا العام ـ ص.ب : ٣٣١٠

☎ ٤٦٤٤٦٥٩ ـ ٤٦٢٦١٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

المحرّم ١٤١٢هـ

مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا. من يهدِهِ الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضْلِل فلا هادِيَ له، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله ـ تعالى ـ وسلم عليه، صلاةً وسلامًا دائمينِ إلى يومِ الدينِ.

أما بعد:

فإن الأمرَ بالمعروفِ والنهْيَ عن المنكرِ شعيرةٌ عظيمةٌ من شعائرِ الإسلامِ، ودعامةٌ راسخةٌ من دعائمِ المجتمع الرّباني، دلّتْ على ذلك النصوصُ، وشهدَ به التّاريخُ، ونطق به الواقعُ.

والأمّة اليومَ تحتاجُ إلى إحياءِ تلك الشعيرةِ، وتقويةِ تلك الدعامة؛ لتنفض عنها بذلك ما علق بها من الغبار الذي أثاره عليها الكيد الخارجي والداخلي، الذي لم يكن ليفعل فعله لولا انحسار المفهومات الإسلامية لدى الأمة، وبعدها عن دينها.

والمتصدِّي لبعثِ ما اندثرَ من تلكَ الشّعيرةِ، ولتقوية مابقي منها؟ يحتاجُ ـ بلا ريب ـ إلى فقه فيها؛ ليسير على هدىً ونورٍ، يُجنّبه الزّللَ والشّططَ، ويُبصّره بالسُّبُل المُثْلى لأداءِ تلك الرِّسالةِ الجليلةِ والمهمةِ الشريفة.

من هنا كانت كتابةُ تلك السّطور؛ إسهامًا في تجلية ذلك الفقه، وإضاءةً للطّريقِ، وتنبيهًا إلى المحذوراتِ، وإزالةً للمعوّقات.

وذلك من خلال الوقفات التالية:

- **المقياس الذي يُعلم به المعروف والمنكر.**
- **ضرورة الأمر والنهي.**
- **أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**
- **عقوبات تركه.**
- حكمه.
- **مراتب الانكار**
- **قضية الانكار باليد.**
- **وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**
- **من يقوم به.**
- آدابه.
- **قضية المصلحة والمفسدة.**
- **مهمة الشباب في ذلك المجال.**
- **المرأة ومقاومة المنكر.**
- **معوقات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**
- **نماذج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

المقياس الذي يعلم به المعروف والمنكر

المعروف مأخوذٌ من (المعْرِفَةِ)، وهي في أصلِ اللغةِ العربيَّة: اسمٌ لما يعرفه القلبُ ويطمئنُّ إليه، وتَسكُنُ إليه النَّفسُ. ولذلك سُمِّي المعروفُ معروفًا.

والمعروف شرعًا اسمٌ جامعٌ لكلِّ مايُحبّه الله ـ تعالى ـ؛ من طاعتِه، والإحسان إلى عبادِه.

و (المنكر) في اللغةِ: اسم لما تُنْكِرهُ النّفُوسُ، وتَنْبُو عنه، وتشمَئِزُّ منه، ولا تعْرِفُه. فهو ضدُّ المعروفِ.

وهو في الشرع اسمٌ جامع لكلِّ ما عُرِف بالشّرع والعقل قُبحُه؛ من معصِيَةِ الله ـ تعالى ـ وظُلْم عبادِه.

وبناءً على هذه التعريفات يتبيَّنُ لنا الأمرانِ التاليانِ:

الأمر الأول: أن المقياسَ في معرفة المعروف والمنكر ليس هو عُرْف الناس، وتقالِيدَهم وما شاعَ بينهم؛ فإنَّ عرف الناس متقلِّب؛ إذ قد يعرفون اليومَ شيئًا ويألفونه ويعتادونه، ثم غدًا ينكرونه ويُضادّونه. كما أنهم قد يفعلون نقيض ذلك؛ فيُنكرونَ اليومَ شيئًا، ثم غدًا يألفونه ويعملون به. فالمقياس في تحديد المعروف والمنكر هو الشرع، وليس العُرْف. وكم من معروفٍ جرى في أعرافِ الناسِ إنكارُه!!.

أرأيت ـ مثلًا ـ إعفاء اللِّحى الذي أمر به النبيُّ ﷺ، كما في حديث

أبي هريرة وابن عمَرَ وغيرهما في الصَّحِيح[1]؟! أرأيت كيف يُصبحُ ذلك المعْرُوفُ في بعضِ المجتمعـاتِ أمـرًا منكـرًا، يُشِيعُ ضدُّه، ويغـدو الإعفاءُ مُستغربًا، لم يَعْتَدْهُ الناسُ، ولم يألفوه؟!!.

أرأيت تقصيرَ الثِّياب ورفعها إلى ما فوق الكعْبَيْنْ، أو إلى منتصفِ السَّاقِ، أو إلى مادون الرّكبة في حقِّ الرِّجالِ، ذلك الأمر الذي ثبت في الشرع، بدلالة عدة نصوص؛ منها قوله، عليه الصلاة والسلامُ، : **«ما أسفلَ من الكعبين من الإزار ففي النَّارِ»**[2]؟!!.

أرأيت كيف أنّ كثيرًا من المجتمعاتِ **لا تَعْرِفُ هذا الأمر،** وإنَّما تعرفُ إرخاءَ الثِّياب وإسبَالها لدى الرِّجال، وتقصيرَها وتشميرَها لدَى النِّساء اللاتي أُمِرن بإرخاءِ ملابسِهن؟!!.

أرأيت كيف يَحدثُ هذا في تلك المُجتمعات؟!، وكيف أنهم إذا رأوْا رجـلًا قد رفـعَ ثوبَهُ إلى نصف السَّاق أو حَوْلَه؛ طَفِقُوا ينظرُون مليًّا باستغرابٍ إلى ذلك الرّجل، ويتغامَزُون، وقد يَتَضَاحَكُون؟!.

أرأيت كيف صار هذا المعروف في الشَّرعِ منكرًا في بعضِ الفئات؟!.

أرأيت احتجـابَ المرأةِ، الذي عُرِف بالشّرعِ قرآنًا وسنةً؟!، أرأيت كيف أنَّ بعض المسلمـين في بعض المجتمعـات قد يجهلون ذلـك المعروف؛ فإذا رَأَوا امرأة **متحَجِّبةً متسَتِّرةً؛ ضحكُوا منها؟!** وكيف أنّ بعضَهم ربّما قال: ما شأنُ هذه المرأة كأنَّها خيمةٌ تمشي!! وكيف قال

(١) انظر مثلًا البخاري (٥٥٥٣) ومسلم (٢٥٩).
(٢) رواه البخاري (٥٤٥٠).

آخرون: إنها إنّما تَسَتَّرتْ لأنّها دَمِيمَةٌ، فتريدُ أنْ تخفِي قُبْحَها!!.

وكم رأينا في بلادٍ تنتمي إلى الإسلام أنّ اللّباس الرّسمِيَّ في المدارس وغيرها للذّكور هو «البنطلون»، الذي ينزلُ تحت الكَعْبين، في حين أنّ لباسَ البناتِ الرّسْمِيّ هو ثوبٌ شحيحٌ إلى الركبة أو فوقَها بقليلٍ! فيا لَلْعَار!.

وعلى الضدِّ من ذلك، كم من مُنْكَرٍ أصبح معروفًا مألوفًا في بعض المجتمعات:

فالغناء - مثلًا - مُنكرٌ واضحٌ، ولكن حين يقوم امرؤٌ ببيان تحريمه، ويذكر الأحاديث الصّريحة في ذلك؛ تجدُ كثيرًا من الناس يَفْغَرُون أفواههم، ويُشْخِصُون أبصارَهم، ويأخذُ منهم الاستغرابُ مأخذًا عظيمًا، ولسانُ حالهم يقول: كيف يكونُ حرامًا هذا الغناء الذي نسمعُهُ في الإذاعاتِ، والتّلفازِ، وأشرطةِ التّسجيل؟!، - وربما يسمعُون من بعض المنتسبين إلى العلم مَنْ يُبيحُه - كيف يكونُ حرامًا؟!.

هكذا يتعجّبُون، ولا يقعُ في أذهانهم أنه مُنكرٌ؛ لأنّهم أَلِفوه، وسكنتْ إليه نفوسُهم؛ فصار عندهم معروفًا، وهو في الشّرع مُنكرٌ.

والربا الذي شاع بين المسلمين، في البنوك والمصارف والمؤسّسات، حتى لا يكاد يخلوُ منه إلا القَلِيلُ، وأصبَحَ الأمرُ كما أخبر النبيُّ، عليه الصلاةُ والسلام، في الحديثِ الذي رواه البخاريُّ: «لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ، لا يُبالِي المرءُ بما أخذ المال، أَمِنْ حلالٍ أم من

حرام»[1].

أرأيت حين يتحدّثُ ناصحٌ عن تحريم ذلك المنكرِ العظيم، أو عن تحريم بعض صُوَرِه الشائعة عند الناس؛ **كيف تجد كثيرًا منهم يُفاجَأُ ويستغرِب**؟! بل ربما رمى بعضُهم ذلك النّاصِحَ بالعظائم؛ لأنه يستنكِرُ أمرًا عرفُوه وألفوه واطّمأنّت إليه قلُوبهم؛ فصارُوا يرونه معروفًا.

وهو في شَرع الله منكرٌ قَبيحٌ!!

ومثل ذلك الصور ـ وخاصّةً الخليعةُ ـ مِنْ صور النساء الفاتنات التي انتشرتْ بين المسلمين اليوم، عبر الشّريطِ والكتاب والمجلةِ والجريدة وغيرها، تلك الصّورُ التي أصْبحتْ **تُقابلُ الناس في البيتِ** والسوقِ والطائرةِ والمكتبةِ، وفي كلِّ مكانٍ.. حين يألفُ المرء رؤيتها ويعتادُها؛ تُصبحُ في نظرِهِ عاديَّةً مُستساغةً، **فإذا سمع مَنْ يقول: إنّ النظر إلى صُوَرِ النساء في المجلات والكتب والأفلام وغيرها حرامٌ ومُنكرٌ؛ فإنّه يستغْرِب، ويقول**: هذا مسكينٌ، الناسُ اليوم يُعانون من النّظر إلى الفواحِش من المشاهِد الجنسيَةِ الهابطةِ التي تقضي على الحياء، وهذا المسكينُ **مازال يتحدّث عن تحريم النظر إلى الصُّورِ!!**

هكذا تصبح بعض المنكرات معروفًا؛ بسبب الذيوع والانتشار والإلف والاعتياد، عند كثير من الناس.

لكن عُرْفَ الناسِ لا يغيّر الشّرع، وإنّما العبرةُ في التّحسينِ

---

(١) البخاري (١٩٧٧).

والتّقبيح بالشّرع، وبالعقل الصحيح، والفطرة السليمة، وهما لا يمكنُ أن يُعارضا الشّرع في ذلك.

الأمر الثاني: أنّ الأصلَ في المجتمع المسلم أنه يَعْرِف المعروف ويُقرّه ويرضاه ويأمر به. وأنه ينكر المنكر ويأباه وينهى عنه.

فإذا أردتَ أن تقف على مدى سلامة مجتمعٍ ما، أو فسادِه، فطبِّقْ عليه هذه القَاعِدَة، **فإنْ وجدْتَه ينفِرُ من المنكَرَات ويُحارِبُها فهذا دليلٌ على سلامتِهِ في الجملةِ.**

وإن وجدته يتقبّلُ المنْكَرَات ويتشرّبُ بها فاعلم أنّه **مجتمعٌ مُنْحَلّ.**

ولذلك كان أسلمُ المجتمعاتِ وأحسنها وأنقاهَا هو **مجتَمع الصحابةِ** ـ رضي الله عنهم ـ؛ إذ كانوا يعرفون المعروف، وينكرون المنكر، ولهذا قال **عبدالله بن مسعودٍ** في الأثرِ الصحيحِ الذي رواه الحاكمُ وغيرُهُ: **«ما رآه المسلمون حَسنًا فهو عند الله حَسَنٌ، وما رآه المسلمون قبيحًا فهو عند الله قَبيحٌ».**

ثم ضرب لذلك مثلاً؛ وهو أنّ الصحابَة اتّفقُوا على اختيار أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ للخلافةِ، فهذا الاتّفَاقُ على ذلك الاختيارِ يدلّ **على أنّه أمرٌ يُحبّه الله ويرضَاه**، ولذلك أصبحَ من جملةِ **عقائدِ أهل السنّة والجماعةِ تفضيلُ أبي بكر على مَنْ عداه من الصّحَابة، والإقرارُ بأنه أولُ الخلفاءِ الراشِدِين**، ومِنْ بعده عمر، ثم عثمان، ثم عليٌّ ـ رضي الله عنهم أجمعين.

ولهذا أجمع المسلِمُون على قبولِ إجماع الصَّحابةِ، وعلى أنَّه حُجّةٌ، فإذا اتّفق الصَّحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ على أمرٍ؛ أصبح المسلِمُون من بعدِهِمْ مُتَعَبِّدِين بذلك الأمر.

وإجماعُ الصَّحابة ـ متى ثبت وصحّ وتحقّق ـ من الأدلّة الشرّعية، لم يخالف في ذلك أحدٌ من المسلمين، ولذلك كان الإمامُ مالكُ ـ رحمه الله ـ يأخذُ بعملِ أهلِ المدينةِ، فما وجد عليه عملَهم في القرنِ الأولِ؛ عَدَّهُ من ضمنِ الأدلّة الشرعيةِ، وهذا أصلٌ خاصٌ بالإمامِ مالك. وكان ـ رحمه الله ـ يُفسّر ذلك بأن عمل أهل المدينة إنّما هو على النُّبوة، أمّا عملُ الأمصارِ الأخرى فإنّه على أوامرِ الملوكِ، كما ذكر ابنُ عبدِ البرّ وغيرُهُ.

وإذا أردت أن تُطبّق القاعِدَةَ المذكورةَ آنفًا على المجتمعاتِ الإسلامية اليوم؛ وجدتها ـ بلا شك ـ تتفاوت تفاوتًا كبيرًا، ولكن يغلب على هذه المجتمعات هنا ـ في الجملة ـ أنّها تتقبّلُ المنكراتِ، وتألفُها، وتنتشرُ بينها بسرعة.

فما أسرع ما تنتشرُ الأزياءُ الأجنبية في أوساطِ نساءِ المسلمين، إذْ بمجرّدِ ما تَظهَرُ مُغَنِّيَةٌ أو مُمثّلة أو عارضةُ أزياءٍ بزيٍّ من الأزياءِ؛ فسرعان ماتجدهنّ يتبارينَ ويتنافسْنَ على تقليدِهِ.

وما أسرع ما تفشو تسريحةٌ معينةٌ للشَّعرِ بين المسلماتِ بمجرّدِ ما يرَيْنَ مُغنّيةً أو ممثّلةً أو فاجِرةً تتزيّن بها.

وما أسرع ما يَشيعُ بين شباب المسلمين كثيرٌ من الظَّواهِرِ المنحَرِفَة؛ تقليدًا لشبابِ الغربِ، سواءٌ في الملبسِ، أو في كيفيةِ الشَّعْرِ، أو في مظهرِ السيّارةِ، أو في غير ذلك.

إنّ تلك الـظّواهرَ الغريبةَ التي تشيعُ بين شبابِ المسلمين إنّما رأوْهـا عند غير المسلمين، فأخذوها عنهم، سواءٌ حين يُسافرون إلى تلك المجتمعاتِ، ويُشاهدون تلك الظواهر عَيَانًا، أو حين يُشاهِدُون الأفـلام والمسلسـلاتِ التي تَعـرِضُ الأوبئـة الموجودة في بلاد غير المسلمين.

وإنّ في تلك القابليّةِ والطّواعية لتقليد الكافرين في منكراتهم لدليلاً واقعيًا واضحًا على الفراغ الكبير في عقول وأرواح كثير من المسلمين.

(ومع ذلك.)

ومع ذلك فإن هذه المجتمعات لا يمكنُ أن يُقال: إنّها مجتمعاتٌ جاهليّةٌ مطلقًا ـ كما يقولُ بعضُ العلماءِ والمفكّرينَ من المسلمين ـ؛ لأنّ الرسول، ﷺ، أخبر أنه لايزالَ في المسلمين من يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ، ومِنْ ذلك بيانُه، ﷺ، لمعنى قولِ الله تعالى: ﴿**ومِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُون بالحقِّ وبهِ يَعْدِلُونَ**﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٨١] فقد بيَّن، عليه الصلاة والسلام، تلك الآيةَ في أحاديثَ كثيرةٍ، منها الحديثُ المتواترُ الذي أخبر فيه أنه «**لا تزالُ في هذه الأمّة طائفةٌ منصورةٌ لا يضرُّهم من خذلَهم ولا مَنْ خَالَفهم**»[1]. وإنّما سمّاها منصورةً؛ لأنّها مجاهدةٌ، تُجاهدُ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤١) (٣٤٤٢) ومسلم (١٩٢١).

على أمرِ الله؛ تأمرُ بالمعروفِ وتنهى عن المنكر، والنَّصرُ من ثمرات الجهاد.

إذنْ لايمكن القولُ بوجودِ جاهليّة مُطلقةٍ في الأمّةِ الإسلاميّة من أقصاها إلى أقصاها، في أيّ زمانٍ، إلا قُبَيْلَ قيامِ السّاعة؛ حين يبعثُ الله ـ تعالى ـ الرّيح الطيّبةَ، **فلا تدعُ أحدًا في قلبِهِ مثقالُ حبّةٍ من خردلٍ من إيمانٍ إلا قبضَتْهُ**، وحينئذٍ لا يبقى إلاّ شِرارُ الناسِ، **يَتَهارَجُون تَهارُجَ الحُمُرِ**[1]. **وأفضل إنسان حينذاك مَنْ إذا رآهم يفعلون الفاحِشَةَ على قارعة** الطريقِ قال: **لو اعْتزلْتُمُ الطّريقَ**[2]!! **وهؤلاء تقومُ عليهم الساعةُ**.

وهنا سِرٌّ عظيمٌ، وهو أنّ الله ـ تعالى ـ أنزلَ القرآن، وبعث الرسل، وأوجد الكعبة، وأبقى الطائفة المنصورة؛ لتحقيق الحجة على الناس، **وإقامة الدِّين والشعائر، فإذا تعطَّلَتْ منافع هذه الأشياء أَذِنَ الله بزوالها.**

وحينئذٍ يبعثُ الله ذا السُّوَيْقَتَين من الحبشة، فيهدُم الكعبةَ، ويقلعُها حجرًا حجرًا، ويستخرجُ كنزها[3]، ولا يعودُ هناك من يحجّ أو يعتمرُ أو يُصلّي إلى الكعبةِ، ويرفعُ الله القرآن من المصاحفِ وصدورِ الرجال، حتى لا يبقى في الأرض منه آيةٌ[4]، ويبعثُ الله ـ عزّ وجلّ ـ **ريحًا طيبةً، فتقبضُ أرواح المؤمنين الآمرين بالمعروفِ، النّاهِينَ عن المنكَرِ؛ لأنّه لم يعد هناك من يستجيبُ لهم. وبعد ذلك تقومُ السّاعةِ.**

---

(١) مسلم ٢٩٣٧.

(٢) مستدرك الحاكم ٣/٣٤٣.

(٣) انظر: البخاري ١٥١٤ ومسلم ٢٩٠٩ ومسند أحمد ٢/٢٩١.

(٤) ابن ماجة ٤٠٤٩ والحاكم ٤/٤٧٣.

أمّا قبل ذلك الحينِ فلا يزالُ في الأمّة من يَصِيخُ لصوتِ النّذيرِ، ويرقُّ لِدَاعيةِ الحقّ، ويسلسُ قيادةَ للخير، قلّ هؤلاء أو كثُرُوا، ولذا ذكر النبيُّ - ﷺ - الغُرَباء في الحديثِ الصّحيح المعروفِ، وذكر من صِفَتِهِم أنّهم: «أناسٌ صالِحون، قليلٌ في أهل سوءٍ كثير، من يعصيهم أكثرُ ممن يُطِيعُهم»[1]

إذن مادام هناك دُعاةٌ إلى الحقّ، آمرونَ بالمعروفِ، ناهُون عن المنكرِ فهناك من يُذْعِنُ لهم ويُطِيعهُم، ويستجيبُ لداعِيهِم، فما أعظمَ عدلَ الله، وما أوسعَ رحمتَه!

الأمر والنهي ضرورة بشرية

الأمـرُ والنَهيُ فطرةٌ في نفسِ كلّ إنسـانٍ، حتى لو كان يعيش منفردًا معتزِلاً الناس فلابدّ أن تأمره نفسُه وتنهاهُ، فإمّا أن تأمره بالمعروف وتنهـاه عن المنكـر، أو على الضـدّ من ذلـك تأمـره بالمنكـر وتنهاه عن المعروف، أو تأمره بخليطٍ من هذا وذاك، وتنهاه عن مثله. **ولذلك قيل: نفسك إن لم تشغلها بالخير؛ شغلتك بالشر.**

ومـا دام الإنسـان الـواحد المنفرد يتعرض للأمر والنهي، فأولى بالمُجْتَمِعين أن يكون بينهم أمرٌ ونهي، سواء كانوا اثنين، أو أكثر من ذلك بقليل، أو مجتمعًـا كامـلًا، أو أمـة. بَيْدَ أنّ هنـاك **ثلاث حالاتٍ للمجتمعاتِ في مجالِ الأمرِ والنّهي:**

---

(١) انظر في تخريج الحديث ورواياته وشرحه كتاب «الغرباء الأولون» للمؤلف ص٣٧.

الحالة الأولى: أن يتآمروا بالمعرُوفِ، ويتناهَوْا عن المنكر، وهذه هي الحالةُ التي وصف الله ـ تعالى ـ بها المؤمنين فقال: ﴿تَأْمُرُون بالمعْرُوفِ وتَنْهَوْن عن المُنكَر﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠]، وقال ـ سبحانه ـ ﴿والمؤمِنُونَ والمؤمِنَات بَعْضُهُم أولياء بعضٍ يأمرُوُن بالمعْرُوفِ ويَنْهَوْن عن المنكَر﴾[سورة التوبة، الآية: ٧١].

الحالة الثانية: أن يتآمروا بالمنكر، ويتناهَوْا عن المعروف، وهذه حالُ المنافقين: ﴿والمنافِقُونَ والمنافِقَاتُ بعضُهُم من بعضٍ يأمُرُون بالمنكَرِ وينهَوْن عن المعْرُوفِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٦٧].

وهنا وقفة مع سِرٍّ بلاغي في الآيتين السابقتين؛ حيثُ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿والمؤمِنُونَ والمؤمِنَاتُ بعضُهُم أوْلِيَاءُ بعض﴾، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿والمنافِقُون والمنافِقَاتُ بعْضُهُم من بعضٍ﴾، وقد يتبادرُ إلى الذِّهن أن يكونَ التعبيرُ: «والمؤمِنُونُ والمؤمِنَاتُ بعضُهُم من بعض». «والمنافِقُونَ والمنافِقَات بعضُهم أولياءُ بعضٍ»؛ لأنَّ علاقة المؤمنين بعضهم ببعض أمتنُ وأقْوَى، فَيُعَبَّر معها بـ «بعضُهم مِنْ بعض»، ويُعَبَّر مع علاقةِ المنافقين بعضهم ببعضٍ بـ «بعضُهم أولياءُ بعض».

والسرُّ في هذا التعبيرِ القرآنيِّ ـ والله أعلمُ ـ أنّ علاقة المؤمنين بعضهم ببعضٍ علاقةُ اتفاق على الدِّين الذي يدينُون به، ولذلك يتوالَوْن فيه، وليست علاقة تناصرٍ على الباطل.

أمّا المنافِقُون فهم لايتَوالَوْن من أجل دِينٍ أو عقيدةٍ، وإنّما يتوالون ويتناصرُون على الباطِلِ، فكلّما ذهب بعضُهم إلى شيء وافقهم

الآخرون وناصروهم، مهما كان ذلك الشيء.

الحالة الثالثة: أن يتآمرُوا ببعضِ المعروفِ، وببعضِ المنكرِ، ويتناهَوْا عن بعضِ المعروفِ، وعن بعض المنكر، فيقع منهم حقٌّ وباطلٌ، ويلتبسُ هذا بذاك. وهذا هو حالُ المقصِّرين والعُصاةِ والمُسْرِفينِ على أنفسِهم.

وبناءً على ماسبق نعلمُ أن المجتمع إمّا أن ينتشر فيه الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن المنكرِ، أو ينتشرُ فيه الأمرُ بالمنكر والنّهيُ عن المعروفِ، أو يكون خليطًا من ذلك.

وانحسارُ الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ في مجتمع من المجتمعات ذو خطورة مُضاعفَةٍ، على خلاف ماقد يتبادر إلى بعض الأذهان، فإن بعض الناس إذا رأوا غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ضعفَهُ في مجتمعات المسلمين اليوم ظنوا أن المشكلة هي فقط أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد زال أو ضعف.

والواقع أن المشكلة أبعد من ذلك وأكبر، فإنه إذا ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قوي الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، فالمصيبة مضاعفة.

وهذا أمرٌ يشهدُ له الواقعُ. وإذا أردنا أن نمثّلَ لذلك فلنأخذْ مثلاً وضع الفتاةِ المتحجّبةِ المتستّرة في بعضِ مجتمعاتِ المسلمين التي يشيعُ فيها التبرّجُ والسّفورُ؛ إنّنا نجدُ تلك الفتاة تُعاني معاناةً شديدةً من الكلام والنظراتِ، سواءً من الأبوين أو من الزميلاتِ، أو من القريباتِ، أو من

غيرهن؛ وذلك لأنها تسبح ضِدَّ التيار؛ إذ المنكرُ لَهُ قوةٌ في ذلك المجتمع؛ لأن المعروف فيه ضَعُفَ. فصار اتجاه المجتمع يضغط بشدة على كل من يخالف مألوفاته وعوائده مخالفة شرعية، ومن العجيب أن ذلك المجتمع يتفهم ويتقبل من يخالفه إلى تقاليد الأمم الكافرة وعوائدها ويعد هذا ضربًا من «التقدم» و «التحضر» و «المعاصرة»! وهكذا يصبح المعروف منكرًا، ويصبح المنكر معروفا! إذن فوضع المجتمعات لا يقف عند حدّ، فإما أن يُهيْمِن الخيرُ والمعروفُ؛ فَيَسْتَخْذِي المنكر، ويستتر ويستخفي لأن القوّة الاجتماعية والسّلطة السياسيّة تُقاومهُ وتُحارِبه، وإمّا أن يُسيْطِرَ ويَنْتَفِشَ ويسْتَعْلي المنكرُ، فينحسرُ المعروف، ولذلك شُرِع في الإسلام الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن المنكر.

لا يخلو مجتمع من منكر

وهاهنا أمرٌ لابدّ من ملاحظتِهِ وهو أنّ وجود بعضِ المنكر في المجتمع الإسلاميّ على وجهِ الخفاء والقِلّة أمرٌ طبيعيٌّ لابدّ من حدوثِهِ، ولم يَسْلَمْ من ذلك حتّى مجتمعُ الجيلِ الفريدِ؛ صحابةِ الرسول، عليه الصلاة والسلام، فقد كان في ذلك المجتمع مُنافِقُون، والمسلِمُون أنفسُهم وقَعَ من بعضهم شيء من المَعَاصِي، وفي الصّحيحين عدّةُ قِصَصٍ من ذلك؛ مثلُ قصّةِ ماعِز بن مالك الأسلميّ - رضي الله عنه - الذي وقع في الزّنا، فجاء إلى النبي، عليه الصلاة والسلام، نادمًا تائبًا إلى الله فقال له: يارسولَ الله زنيتُ، فطهِّرْني، فيُعْرِضُ عنه الرسولُ، ﷺ، ومايزالُ ماعزٌ يُرَدِّدُ على النبيِّ، ﷺ، اعترافه بالزّنا عدّة

مراتٍ، حتى أقام عليه المصطفى، عليه الصلاة والسلام، حدَّ الزّنا[1].

ومثلُ تلك القصّةِ قصّةُ الغامديّة التي جاءت إلى النبيِّ، ﷺ، تشهدُ على نفسِها بالزّنا، وتطلُبُ أن يُقيمَ عليها الحدَّ، ولما رأتْ أنه يُريد أن يردَّها قالت: لعلّك تُريد أن تردُّني كما رددتَ ماعزًا، والله إني لَحُبْلَى من الزِّنا، فيأمرُها الرّسولُ، ﷺ، أن تذهب حتى تلد. وتذهبُ وتقضِي مدةَ الحمل كلَّها وحرارةُ النّدم تأكلُ قلبها. وتأتي بعد الوضع إلى النبيِّ، عليه الصلاة والسلام، لِيُقِيم عليها الحدّ، فيأمُرها أن تذهب حتى تَفْطِمَ ولَدَها. وتُمْضِي مدّةَ الرّضاع كلَّها وقلبُها لايَزالُ يقظًا حيًّا يتفطّر حسرةً. ثم تأتي بعد فطام الصَّبيّ إلى الرّسول، ﷺ، ومعها الصّبيُّ وفي يدِهِ كسرةُ خبز؛ لتؤكِّد للنبي - ﷺ - أنّ ولدها أصبح غنيًّا عن رضاعها، فيأمر النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - برَجْمِها[2].

هكذا وقع في مجتمع الصّحابة الأطهار شيءٌ من المنكرات، لكنها حالاتٌ فرديّةٌ مستترةٌ مُستخفِيَة، وكانت ضمائرُ الذين يُبْتلوْن بشيء من هذه المنكرات حيّةً يقظةً، فما أسرعَ مايقودُهم خوفُهم من الله إلى التّوبة النّصوحِ الصّادقة، بدون أن يحتاجوا إلى رقابة أو متابعةٍ خارجية، ولـذلك ذكر النبي، ﷺ، أنّ ماعزًا - مثلًا - تاب توبةً لو قُسّمتْ بين سبعِينَ من أهلِ المدينةِ لَوَسِعَتْهُم.

إذنْ فمجرّدُ وجودُ معاصٍ قليلةٍ مُستخْفِيَةٍ في المجتمعِ الإسلاميّ

---

(١) البخاري (٥٢٧١) ومسلم (١٦٩١) و (١٦٩٥) ورواه أيضًا أحمد في المسند (٢/٤٥٣).
(٢) مسلم ١٦٩٥ و ١٦٩٦.

أمرٌ لا مناصَ منه، ولا يقدَحُ في سلامةِ المجتمعِ .

وهـذا شبيهٌ ـ إن أردنـا أن نشبِّـه ـ بما يُطلقه الأطباءُ والمراقِبُون الصّحيّون على مجتمـعٍ ما، حين يَصِفُونَ مجتمعًا من المجتمعات بأنه سليمٌ صحيًا، فهـل يَقْصِدُونَ أن جميع أفراد هذا المجتمع أصِحّاءُ تمامًا؟! كلاّ. . إنّما يَقْصِدُون أن الأمراض العامّة، والأوْبئَة الفتّاكة والمعدِية لا توجدُ في ذلك المجتمعِ ، أما وجود حالاتِ مَرَضِيّةٍ فرديّةٍ فأمرٌ طَبَعيّ.

لكن الأمـرَ الخـطِيرَ القـادِحَ في سلامـةِ المجتمـعِ هو أن يُعْلِنَ أصحابُ المنكَرِ منكَرَهُم، ولايستحْيُوا من إظهارِه، إذْ إنَّ هذا يدلّ على هيمنةِ المنكرِ وأهله، وضعف المعروف وأصحابه.

إنَّ هذا يُشبـه ذلـك المجتمـع الـذي تفشّت فيه جُرْثُومةُ الوبَاءِ فأصبحَ الناسُ يستنشقُونها مع الهواءِ، ويشربُونها مع الماءِ، ويتعاطَوْنها مع الغِذَاءِ، فلا يكاد يسلُم منها إلا أقلُّ القليل.

وهـــذا هو الشـأنُ في المجتمعـاتِ التي تمكّن للفسـاد، وتحمي الرّذِيلة، وتضعُ إمكاناتها الماديّة والمعنويّة غطاءً قويًّا للمنكر، تُعاقبُ من يُنكـره ـ ولـو بلسـانِـهِ ـ بقوّةٍ وحزمٍ ، وتُحاصِرُ الناسَ بالمنكرِ في أماكنِ تجمُّعِهم، وأسـواقهم، ومنتدياتهم، بل وفي عُقْرِ بيوتهم، حتى يتسلّل المنكر إلى «غرفة النوم» أو إلى «مهاجع الأطفال» وما أخْلَقَ المؤمن بالصّبرِ

(أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

تبرزُ أهميّة الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر في الأمّة المحمديّة من عدّة نواحٍ، وبموجب أسباب مختلفة، لعلّ أهمّها:

١ ـ أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو سبب خيريّة هذه الأمّة، وهو من خصائصها وميزاتها التي مَنَّ الله ـ تعالى ـ عليها بها من بين سائر الأمم؛ قال ـ عز وجل ـ ﴿كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عن المنكَرِ وتُؤمِنُونَ بالله﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠].

وقال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿والمؤمِنُونَ والمؤمِنَاتُ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ يأمرُونَ بالمعْرُوف وينْهَوْنَ عن المنكَر﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧١].

هذه هي صفةُ المجتمع المسلم وميزتُهُ التي جعلتْ هذه الأمة غُرَّةً في جبين الدّهر، وتاجًا يأتَلِقُ على مَفْرِق التّاريخِ.

أمّا المجتمعات الجاهليّةُ الكافِرة فديدنُها الأمرُ بالمنكرِ والنّهي عن المعروفِ عبر تاريخ البشريّة الطّويل، وأبرزُ شاهد على ذلك: المجتمعاتُ المعاصرةُ التي ارتضت الكفر والضلال، فإن تلك المجتمعات اليوم تُحارِبُ الفضيلة، وتدعَم الرّذيلة، متذرِّعةً بالحريّة الفرديّة المزعُومة.

إنك تجدُ في بلاد الغرب ـ مثلًا ـ إتاحة الحريّة لأهل العُرْي والعُهْر والفساد والرّذيلةِ، بل تجدُ ذلك الانحطاط مفروضًا على الفرد وضمن مناهجهم الدراسية، تجدُ السباحة العارية والثقافة الجنسية، وفي المجتمعات الشرقيّة يُدرَّسُ الإلحادُ للصّبيان الصّغار. فما أحلم الله!!

أمّا حين يَرونَ بادِرَةً للفضيلة والمعروف فإنهم يقِفُون في طريقِها، ويئدُونها في مَهْدها، ويحاربُونها بضَرَاوةٍ. ومن أقرب الأمثلة لذلك ماحصل قبل فترة ليست بالبعيدة في فرنسا؛ حين ذهبت ثلاثُ فتيات مسلمات إلى مدرستهن، وقد لبسْنَ الحجاب على رؤوسهن، فمنعهن مديرُ المدرسة من الدخول حتى يخلعن الحِجَاب، وتطوّرت القضيّةُ؛ حتى دُرستْ على أعلى المستويات الرّسميّة، وتدخلت فيها دول خارجية للوساطة عند والد هؤلاء الفتيات لتغيير قناعتهن بالحجاب. وطفقت الصحف الفرنسيّة تكتب عن هذه القضية، وتحذِّر من هذه الظاهرة، وتذكر خطورة الإسلام على فرنسا، وتتَتَبَّعُ تاريخ الحجاب، وكيفية نزعه في مصر، وأقحمُوا في تلك القضيّةِ ثورة الخميني الإيرانية، وهوّلوا الأمر تهويلاً عظيمًا!!.

سبحان الله!! أين الحريّةُ الفرديّةُ التي يتغنّوْن بها؟! ماهذا الهَلَع والرّعبُ من هذا التصرف اليسير الذي لا يعدّ شيئًا في خِضَمّ ذلك المجتمع المتحلل؟!.

إنّ هذه الحملة الشعْواء لتدلُّ على زيفِ دَعَاوَى العَلْمَانِيَّةِ البراقة، التي تتغنى بالحريّة، فإذا كان الإسلام هو الخصم صُودرت الحريّات، وظهرت العداوةُ والشّراسَة جليّةً لا مُواربة فيها ولا هُدُوء.

إذنْ فهذا المجتمعُ ـ باختصارٍ ـ يأمرُ بالمنكر، وينهى عن المعروف.

ولقد رأيتُ في بعض البلاد التي هاجر إليها كثيرٌ من المسلمين،

وأقاموا فيها، وتزوّجُوا من نسائها النّصرانيّات؛ رأيتَ أنّ بنت الواحدِ من هؤلاء تُمارسُ حُريتها الكاملة، فتخرجُ متى شاءتْ، وتدخلُ متى شاءتْ، وتأتي بعشيقها إلى البيت ليجلِسَ معها في غرفتها الخاصة، والويلُ لأبيها إنْ تدخّل في شأنها، إذ ماعليها حينئذ إلا أن تدير قرص الهاتف لتَتّصِل بالشّرطةِ؛ فتأتي الشرطة وتقبض على الأب، وتأخذه إلى المخفر، وتُجري معه تحقيقًا طويلًا؛ لأنه تدخّل في حريّة البنت!!.

هكذا يأمرون بالمنكر وينهَوْن عن المعروفِ ـ والعياذُ بالله ـ.

أمّا المسلمون الذين اختصّهم الله بالخيريّة فهم يتآمرون بالمعروف، ويتناهَوْن عن المنكَرِ، ويتعاونون على البرّ والتّقوى.

٢ ـ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزء من التكافل الذي جعله الله ـ تعالى ـ قائمًا بين المؤمنين، إذ المؤمنون متكافلون متكاملون فيما بينهم، فمَثلًا لا يجوز أن يكون هناك مسلمٌ جائعٌ والمسلمون حوله يأكلون مِلء بُطونِهم، ولو حدث ذلك لكان لذلك المسلم أن يأخذ مِمَن حوله من المسلمين بالقُوّة ما يَسُدُّ رَمَقَهُ، ويَقْضي به حاجته، ويكونُ المسلمون آثمين في تخليهم عن مساعدَتهِ وسدِّ حاجته. وكذلك الحالُ في سائر الحاجات الضروريّة.

ولو وجدت رجلًا يغرقُ لوجب عليك أن تُنقِذَه بقدرِ استطاعَتِك، حتى لو ترتّب على ذلك أن تنشغل عن عبادةٍ مَفْرُوضَةٍ قد شرَعْت فيها، مِنْ صيامٍ أو صلاةٍ أو غيرهما.

ولو رأيت شخصًا يرْيد شراء بضاعةٍ فاسدة لكان واجبًا عليك أن

تُبيّن له أنّها فاسدةٌ، من باب التّناصُحِ وإرادة الخيرِ للمسلمين، ومن هنا كانت مُراقبةُ السلع والأسواق وحمايةُ المستهلكِ جزءًا من نظام الحِسْبَةِ الشّرْعِيّة.

هذا كلّه لأن المحافظة على «الإنسان» في الإسلام قضيةٌ مُهِمّة جدًّا. لكن «الإنسان» في الإسلام ليس جسدًا فقط، وإنّما هو جسدٌ وروحٌ، فكما أننا مُطَالبُون بالمحافظةِ على أرْواحِ المسلمين وأموالِهم، فكذلك نحن مُطالبُون بالمحافظة على عقيدتهم وأخْلاقِهم وتمسُّكِهِم بدينهم، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يتمُّ به تكميلُ مايطرأُ على دين بعض المسلمين من النَقص والتَقصِيرِ، ويحصُل به التّكافلُ الواجِبُ في هذا الجانب.

ياخادم الجسم كم تشقى لخدمته	أتعبت نَفْسك فيما فيه خُسْرَانُ
أقبلْ على النفسِ فاستكملْ فضائلها	فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ

٣ ـ أنّ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانةٌ للبيئة من التلوّث الفكريّ والأخلاقيّ، وهذا النوعُ من التلوّثِ لا يقلُّ خطورةً وفتكًا عن التلوّث الحسيّ الذي يَنْجُم ـ مثلاً ـ عن الحرب الجرثوميّة التي تُفْزِعُ الناس، وتقضّ مضاجِعَهُم. أو غيرها من وسائل التّلويث.

فإتاحةُ الفرصة ـ مثلاً ـ لأهل الرّذيلة ليمارسوا الإفساد من خلال الأغنية، والمجلّة والكتاب، والأجهزة المرئية، وبيوتِ الدّعارة، وغيرها؛ هذا يلوّث البيئة العامة، وينشر الوباء الأخلاقي الفتّاك في المجتمع، مما يعسّر مهمّة المصلحين، ويجعلهم يقفون

أحيانًا عاجزين عن مقاومة تيار الانحلال.

وقُلْ مثل ذلك في نشر الشّبهات الفكريّة التي تشكّك الناس في دينهم؛ من خلال الكتـاب، والمجلّةِ، والجـريدةِ، والشريط، والقصيدة، ونحوها؛ فإن في ذلك - أيضًا - تلويثًا للبيئة من الناحية الفكرية، مما يجعل كثيرًا من الناس يتخبّط في بحرٍ من الشّبهات التي تتجاذبه من هنا ومن هناك.

إنّـه لا يجوزُ أن يُقْـذَفَ بالمجتمـع في أحضـان الشُّبهـات والشّهواتِ اعتمادًا على ما يُزْعم له من حصانة؛ فإن الإنسان ليس معصـومًـا، وليس لديه حصـانـةٌ من الضّلالِ أو الانحلال حين يتعـرّض لِسُيُول الفتنـة، قال الله - تعـالى -: ﴿وخُلِقَ الإنسـانُ ضعيفًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٢٨] وإنّك لتجدُ الرّجل التّقيَّ الطّاهر قد يتعـرّض لشبهةٍ أو شهوة؛ فيظلُّ يعالجُ قلْبَهُ أيامًا من جرّاءِ ذلك، فالنّفسُ أمّـارةٌ بالسوءِ، والشّيطانُ مُسَلَّطٌ على ابن آدم، والإنسانُ مَجْبُولٌ على حبِّ الشّهوات.

والمجتمـعُ الـذي تُظْهـر فيه المنكراتُ - فكريّةً أو أخلاقيّةً - يتعرّضُ لهزّاتٍ عظيمةٍ، لا يعلمُ مداها إلا الله، ولهذا قيل: إنّ المنكر إذا خَفِي؛ لم يضرُّ إلا صاحبه، وأما إذا أُعلن؛ فإنه يضرُّ الخاصّة والعامّة.

ولذلك فإنّ صاحب المنكر إذا كان في بيئة غير مُلَوَّثة فإنّه يُخْفي

مُنكره، ويبالغ في التواري والاسْتِتَارِ؛ **لأنّه يعلم أنه يعيشُ في بيئةٍ صالحةٍ**، وأنه يقوم بعملٍ ضدّ المجتمع، فشأنُهُ تمامًا كشأن الذي يريد أن يقوم بعمل تخريبي يُخِلُّ بأَمْنِ المجتمع، فيخطّطُ وينفّذُ في الظلام، بعيدًا عن الأنظار.

لكن صاحب المنكر **إذا كان يعيشُ في بيئة ملوّثة موبوءة فإنّه** يُمارسُ منكره جِهَارًا، على مرأىً ومسمع من النّاس؛ **لأنه يُحسّ أنه يقومُ بعمـل طبعِيّ**، لا يُخالفُهُ المجتمع عليه، وقد يَؤول الأمرُ إلى استتـار صاحب المعـروفِ واستخفائِهِ خشية العقوبةِ، أو خوفًا من أعين الناس وألسنتهم الحداد!.

وكم هو مُحزنٌ أن ينشأ بعضُ أطفال المسلمين في بيئات ملوّثة بالسّمُوم الفكريّة أو الأخلاقيّة أو غيرها من سُموم الفساد، **فيرضَعُون الرّذيلة مع حليب الأمّ**، ويستنشقون الهواء الملوّث بالجراثيم المعنويّة الفتّاكةِ، فينشأ أحدُهم ضَحْلَ الثّقافة، بعيدًا عن الدِّين، **منحرِف الفكر والسّلُوك**.

غايةُ علمه خليطٌ من قُمامات الأغاني، والتصورات التّائهة، والاهتمامات التّافهة. **لا يكادُ يقيمُ آيةً من القرآن الكريم**. يستنكرُ المظاهر الإسلامية إذا رآها؛ لأنه لم يعتدها ولم يألفها؛ فيستوحش ـ مثـلاً ـ من منظر المرأة المحجَّبة العفيفة، ويستغرب صنيعَها؛ **لأنه تَرَعْرَعَ في بيئة ملوّثةٍ** بضروبِ الجراثيمِ السّلوكيّة والفكريّة.

٤ ـ أنّ الأمر بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر **ضمانةٌ من العقوبات الإلهية**

التي تحلُّ بالمجتمعات إذا فشا فيها الفسادُ. وسيأتي تفصيلُ تلك العقوبات في المبحث التالي.

(العقوبات والآثار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

سننُ الله ـ تعالى ـ في خلقه ثابتةٌ لا تتغيّر، ولا تُحَابي أحدًا، ولا تَتخلّفُ عند وجود أسبَابها.

وإنّ من سُنن الله الماضيَة أن يُسَلّطَ عُقُوبَاته على المجتمعات التي تفرِّطُ في شَعِيرَةِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ؛ ﴿لُعِنَ الذِين كَفَروا من بَنِي إسْرَائِيل على لِسَانِ داود وعِيسى بن مرْيَم ذلك بِمَا عصوْا وكانُوا يَعْتَدُون. كانُوا لا يَتَنَاهَوْن عن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لبِئْس ماكانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المائدة، الآيتان ٧٨، ٧٩].

ولقد غطّى الجهلُ وقلّةُ الدّينِ على قلوبِ بعضِ السّطْحِيينَ؛ فاغترُّوا بإمهالِ الله ـ عز وجل ـ فظنّوا أنّ تحذير الغيورين من مغبة التّمادي في المنكر، ومن عُقْبَى السّكُوتِ عن إنكاره؛ ظَنُّوا ذلك ضربًا من ضُروبِ الإرْهَابِ الفِكْرِيّ والتّخْوِيفِ المبالَغِ فيه، وليس له حقيقةٌ.

لكنّ الذين يستنِيرُون بنُور الوْحِي، ويتأمّلُون نصوص الكتاب والسُّنّة، يُدْرِكُون تمام الإدْراكِ العقوباتِ العظيمة التي سنّها الله في حقّ كلّ أُمّة تخلّت عن التآمر بالمعرُوفِ والتّناهِي عن المنكَرِ، سواءً كانت تلك النّصوصُ حكايةً لمصائر الأمَم التي فرّطتْ في تلك الشّعيرة، أو

وعيدًا لمن سلك سبيلها وليس من الضّروريّ أن تظهر هذه العُقُوباتُ بين يوم وليلةٍ فإنّ الذي يُحَدّد زمانَها ومكانَها وصفتَها هو الله ـ عز وجل ـ وليس اسْتِعْجَال البشَر أو استبطاءهم.

وتلك العُقوباتُ والآثارُ السيئَةُ كثيرةٌ ومتنوّعة، لكن من أظهرها:

١ ـ كثرة الخبث:

روى البخاريُّ ومسلمٌ، عن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أن النبي، ﷺ، استيقظ يومًا من نومه فَزِعًا وهو يقول: «لا إله إلا الله ويلٌ لِلْعَرَبِ من شرٍّ قد اقْتَرَب؛ فُتحَ اليوْم من رَدْم يأْجُوجَ ومأْجُوج مثلُ هذا ـ وحلّق بين إصبعيه السّبابة والإبهام ـ»

فقالت له زينب ـ رضي الله عنها ـ: يارسول الله، أَنَهْلَكُ وفينا الصّالِحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُر الخَبَثُ».[1]

وكيف يَكْثُرُ الخبَثُ؟

إنّ المنكر إذا أُعلن في مجتمع، ولم يجد مَنْ يقف في وجهه؛ فإن سوقه تقوم، وعوده يشتدُّ، وسلطته تَظْهَر، ورواقَه يمتدُّ، ويُصبحُ دليلاً على تمكّن أهل المنكر وقوتهم، وذريعةً لاقتداء الناس بهم، وتقليدهم إيّاهم، وما أحرصَ أهلَ المنكر على ذلك، ولهذا توعّدهم الله ـ جلّ وعلا ـ فقال: ﴿إنّ الذين يُحبُّون أن تَشِيعَ الفاحِشَةُ في الذِين آمنوُا لهم عذَابٌ ألِيمٌ في الدّنْيا والآخِرَةِ﴾ [سورة النور، الآية: ١٩].

---

(١) البخاري (٣١٦٨) ومسلم (٢٨٨٠).

فإذا قلّد بعضُ الناس اهل المنكر والزّيغ في منكرهم ؛ أخذ الباطلُ في الظّهور، وهان خطبُه شيئًا فشيئًا في النّفوس، وسكت الناس عنه، وشُغلوا بما هو أعظم منه، ومازال المنكراتُ تَفْشو، حتى يَكْثُر الخَبَثُ، ويصير أمرًا عاديًا مُستساغًا، تألَفُه النفوسُ، وتتربى عليه.

وينحسِرُ ـ بالمقابل ـ المعروفُ والخيرُ، ويُصبح هو المستغْرب، ولذلك قال الخليفةُ الملهَمُ عمرُ بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ في كتابه إلى أمير المدينة الذي يأمرُهُ فيه بأن يأمر العلماء بالجلوسِ لإفشاء العلم في المساجدِ: «وليُفْشُوا العلم، فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرًّا».

إنها لعقوبةٌ كبيرةٌ أن يُهيمنَ المنكرُ، ويصبح المعروفُ غريبًا.

لكن.. هل يقفُ الأمرُ عند هذا الحد؟

إليك الإجابة:

٢ ـ إن كثرة الخبث تؤذن بالعذاب الإلهي العام، والهَلاكِ الشّامِل، كما دلّ على ذلك حديثُ زينب المذكورُ آنفًا، الذي نُقل عن جماعةٍ من الصّحابة، مما يدلّ على اهتمام النبي، ﷺ، بهذا الأمر.

ولقد بوَّبَ الإمامُ مالكٌ في الموطأ على هذا الحديث بابًا سماه: (بابُ ماجاء في عذاب العامّة بعمل الخاصّة)، وساق تحت هذا الباب أثرًا عن عمر بن عبدالعزيز، وهو قوله ـ رحمه الله ـ: كان يُقالُ: إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يعذِّبُ العامة بذنبِ الخاصةِ، ولكن إذا عُمِل المنكر جهارًا استحقُّوا العقوبة كلُّهم[1].

[1] الموطأ ١/٩٩١.

وهـذا الأثر يدعَمُ ماسبق ذكره من خُطورةِ الإعلانِ بالمعصِيَة؛
ومن وجوب التّفريق بين المنكر المختفي والمنكر الظاهر.

وقد قصَّ الله ـ عزّ وجلّ ـ علينا خبر بني إسرائيل حين نهاهم أن
يَعْـدُوا في السّبتِ، ولنا في تلك القصّة عِبرةٌ: ﴿وإذْ قالتْ أُمّةٌ منهم لِ
تعِظُونَ قوْمًا الله مُهلِكُهم أو مُعَذِّبُهم عذابًا شديدًا قالوا مَعْذِرةً إلى ربِّك
ولعلهم يتّقون. فلما نسُوا ما ذُكِّروا به أنجَيْنا الذين يَنْهون عن السُّو
وأَخَذْنا الذين ظَلموا بعذاب بئيسٍ بما كانوا يفسُقُون. فلما عتوا عما نُهُو
عنه قُلنا لهم كُونوا قِرَدةً خاسئين﴾ [سورة الأعراف، الآيات: ١٦٤ ـ ١٦٦].

إذنْ فقد أنجى الله ـ تعالى ـ الذين ينهوْن عن السّوء فقط، وأ
البقيّةُ فقد عذّبهم كلّهم. هذه سنّتُه ـ سبحانه ـ في كلِّ أُمّة يحِقُّ علي
العذابُ.

فإنْ لم يكن في الأمّة من ينهي عن السّوء والفسادِ فلا نجاةَ لأح
منها. ﴿فلَوْلا كان من القُرون مِنْ قَبْلِكُم أُولو بَقيَّةٍ يَنْهوْن عن الفَسادِ في
الأرضِ إلا قليلاً مِمَّنْ أنجَيْنا منهُم واتَّبع الذين ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فيه..﴾
[سورة هود، الآية: ١١٦].

وفي حديث جرير الذي رواه أبوداود: «مامن رَجُل يكون في قو
يعمـل فيهم بالمَعاصِي، يَقْدِرُون على أن يُغيروا عليه، فلا يغيّروا إ
أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا»[1].

إنّ وجود المصلِحين في الأمّة هو صَمّام الأمان لها، وسببُ نجاتـ

(١) ابو داود (٤٣٣٩).

من الإهلاك العامّ، فإن فُقد هذا الصنفُ من الناس؛ فإنَّ الأمّة ـ وإن كان فيها صالحون ـ يحلُّ عليها عذابُ الله كلِّها صالحها وفاسدها؛ لأن الفئة الصالحة سكتت عن إنكار الخبث، وعطّلت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فاستحقت أن تشملها العقوبة.

وروى أبوداود والترمذيُّ عن أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «أيُّها الناسُ إنّكم تَقرءون هذه الآية»: ﴿يا أيُّها الذِين آمنُوا عليكم أنفُسَكُم لا يضرُّكُم من ضَلّ إذا اهْتَدَيْتُم﴾ [سورة المائدة، الآية: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسول الله، ﷺ، يقول: «إنّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ فلم يأخُذُوا على يدَيْه؛ أوشَكَ أن يعمّهم الله بعقاب منه». [١] وقد رُوِي هذا الحديث مرفوعًا كما روي موقوفًا، والرّاجحُ أنه موقوفٌ على أبي بكرٍ. لكنْ له حكم المرفوع؛ لأنه مما لا يُقال بالرأي.

والظّالمُ هنا هو المرتكِبُ لأيّ نوع من أنواع الظّلم الكثيرة، فالمشركُ ظالمٌ: ﴿إنّ الشِّرْك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان، الآية: ١٣]، والعاصي ـ أيًا كانت معصيته ـ ظالمٌ لنفسِه ولغيرِه، سواءٌ كان سارقًا أو غاشًا أو منتهكًا عِرضًا أو غير ذلك.

وروى حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ، ﷺ، قال: «والذي نفسي بيده، لتَأْمُرُنَّ بالمعْرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عِقَابًا منه، ثم تَدْعُونَه فلا يُسْتَجابُ لكم» [٢] يهزُّ القلوب

---

(١) الترمذي (٢١٦٨) وأبو داود (٤٣٣٨).

(٢) رواه الترمذي (٢١٦٩) وأحمد في المسند ٥/٣٨٨.

الحيّة، ويدفعُ أصحابها إلى أن يكونوا من أُولي البقيّة الذين يَنهوْن عن الفساد في الأرض؛ لتكون سفينة المجتمع محْميَّةً من الغرق الذي يُهدّدُه عند ما يُترك السّفهاءُ يخرقُون فيها، كما روى النعمانُ بنُ بشير، عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهمُّوا على سفينة، فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوْقَهم، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤذِ من فوقنا. فإنّ يتركوهم وما أرادُو هَلَكُوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا**»[1].

فالمجتمعُ تمامًا كأصحاب السّفينة هؤلاء، فإنّ الذين في أعلى السّفينةِ إنْ تركوا الذين في أسفَلها لِيَخْرِقُوا في نصيبهم خَرْقًا وقالوا: هذه حريّةٌ شخصيّةٌ لهم، فليفعلوا ماشاءوا؛ فإنّ النتيجةَ غرقُ السفينةِ وهلاكُ الجميعِ، وإن أخذَ الذين في الأعلى على أيدي الذين في الأسْفَل، وقالوا لهم: ليس الإضرار بالمُلك العام من الحرية الشخصية؛ فالنتيجة نجاة الجميع، وهكذا حال المجتمع؛ فإن أهل الفساد الواقعين في حدود الله يخرقون بمعاول انحرافهم في سفينة المجتمع، فإن أخذ المصلحون على أيديهم، ومنعوهم من الإضرار بالمجتمع؛ نجا الجميع، وإن تركوهم في غيِّهم، وتخاذلوا عن الإنكار عليهم؛ هلكوا قاطبةً.

وقبل أن أترك الحديث عن هذه العقوبة أود أن أنبه إلى أمر لايكاد

---

(١) رواه البخاري (٢٣٦١).

ينقضي العجب منه، وهو أن بعض الناس يستغربون مثل هذا الكلام؛ يستغربون مِنْ قول الناصحين: إن المصلحين هم حُماة سفينة المجتمع من الغرق، بل قد يستغربون من قول الناصحين: إنَّ ما أصابنا وأصاب غيرنا من الأحداث الأخيرة المؤلمة إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي. يستغربون ذلك، ويعزو بعضُهم ماحدث إلى الأسباب المادية، ويقولون: كيف تكون المعاصي هي سبب ما حدث، والكفارُ - مع كفرهم - يعيشون في نعيم وسعةِ عيشٍ، وتمكينٍ في الأرض؟!.

هكذا يقولون ويظنون، متناسين أو جاهلين سنن الله الثابتة، والنصوص الصريحة الواضحة، والوقائع التاريخيه السالفة والخالفة

وهذا منطقُ الذين لا تتعدى نظرتُهم الحياة الدنيا، ومنطقُ السّطحيين الذين ينظرون إلى رقعةٍ محدودةٍ من المكان، في حيِّز محدود من الزّمان، ومنطقُ المادّيين الذين يتنكرون لوحي الله - عز وجل -: ﴿ولَوْ أنَّ أهْلَ القُرَى آمنُوا واتّقَوْا لفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركاتٍ من السَّماءِ والأرْضِ ولكنْ كذَّبُوا فأَخَذْنَاهُم بما كَانُوا يَكْسِبُون. أفأَمِنَ أهلُ القرى أن يَأْتِيهم بأْسُنَا بياتًا وهم نَائِمُون. أو أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أن يَأْتِيهم بأْسُنَا ضحىً وهم يَلْعَبُون. أفأمنوُا مَكْرَ الله فلا يأمَنُ مكرَ الله إلاّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ. أو لَمْ يَهْدِ للذِين يَرِثُونَ الأرْضَ من بعد أهْلِها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يَسْمَعُون﴾ [سورة الأعراف، الآيات: ٩٦ - ١٠٠].

﴿وأن لو استقاموا على الطَّريقةِ لأسْقَيْنَاهُمْ ماءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فيه ومن يُعْرِضْ عن ذِكْر ربّه يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [سورة الجن، الآيتان: ١٦، ١٧].

﴿ولـولا أن يكـون النَّاسُ أمَّةً واحِدَةً لجعَلْنا لمن يَكْفُرُ بالرَّحْمَن لبيُوتِهم سُقُفًا من فِضَّةٍ ومَعَارِجَ عليها يظْهَرُون . ولبُيُوتِهم أبْوَابًا وسُرُرًا عليْها يَتَّكئُونَ . وَزُخْرُفًا وإنْ كلُّ ذلك لَمَّا مَتَاعُ الحيَاةِ الدّنْيَا والآخِرَةُ عند ربِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف، الآيات: ٣٣ ـ ٣٥].

٣ ـ الاختلاف والتناحر:

إنَّ من أنْكَى العُقُـوبَـات التي تنـزلُ بالمجتمـع المُهْمِـلِ للأمر بالمعـروفِ والنهي عن المنكرِ أن يتحوّل ذلك المجتمع إلى فِرَقٍ وشِيَع تتنـازعها الأهواءُ، فيقعُ الاختلافُ والتّناحُرُ: ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أن يَبْعَثَ عليكُم عَذَابًا من فَوْقِكُم أو من تَحْتِ أرجلكم أو يلبسكم شِيَعًا ويُـذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [سـورة الأنعام، الآية: ٦٥]. وذلك التناحر يجعل المجتمع عُرضةً للانهيار والانهِزام أمامَ العدوّ الخارجيّ المتربِّص.

ولا يحمي المجتمع من التّفرق والاختلافِ إلا شريعةُ الله؛ لأنها تجمـعُ النَّاس، وتحكمُ الأهواء، أما إذا ابتعد الناسُ عن شريعةِ الله ـ تعالى ـ؛ أصبح كلُّ امرئ يتّبعُ هَواهُ، وأهواءُ الناسِ لا يضبطها ضابط.

وإن ممّا يدلّ على ارتبـاط التّفرّق والتّناحُر بترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكرِ أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: ﴿ولْتَكُنْ منكُم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعْرُوف ويَنْهَوْن عن المنْكَر وأولئكَ هُمُ المفْلِحُون﴾ [سـورة آل عمـران، الآية: ١٠٤]. ثم قال بعـد ذلك مباشرةً: ﴿ولا تَكُونُوا كالـذِينَ تَفَرّقُوا واختَلفُوا من بعدِ ماجَاءهُمُ البيِّناتُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٥]

والمتأمّل في حالِ عددٍ من البلاد الإسلامية يجدُ أنّ من أهمّ أسباب تفرّق المجتمع فيها أنّهم أهملوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فترتّب على ذلك شُيُوعُ الفسادِ وظهورُه وسيطرتُه، بشتّى صوره وأنواعه: مابين عري، وسُكْر، وحفل غنائيّ، وسهرةٍ راقصةٍ، وعَرْض مسرحيّ، وغير ذلك.

وهذا الفسادُ يغيظُ الصّالحين، فيغارون على حُرمات الله، فيحاولُون تغيير المنكرِ، فلا يجدون قناةً شرعيَّةً تُمَكِّنُهم من تغيير المنكر، فيضطرّون إلى أساليب مندفعةٍ، تجعلُ المجتمع أطرافًا مُتصارعةً مُتناحِرةً.

ونماذجُ ذلك في المجتمعاتِ الإسلامية غيرُ قليلةٍ، فمن ذلك ما نشرتْه بعضُ الصّحفِ من عدّة أخبارٍ منذ عدة سنوات عن إندونيسيا التي يشِيع فيها كثيرٌ من المنكرات ـ شأنُ كثير من البلاد الإسلامية ـ تقول هذه الأخبار إن هناك مجموعة من الناس غير معروفة تتصيّد المجرِمين خفيةً وتقضِي عليهم، أيْ إذا وجدوا إنسانًا يقوم ـ مثلاً ـ على بيت دعارة، أو على أيِّ منكر علنيٍّ؛ فإنّهم يقتلُونه، ولا تعجَبْ من مثل هذا في بلادٍ يسكنُها نحو مائةٍ وخمسين مليونًا من المسلمين وتكون عُطْلَتُهم الرّسميّة يومَ الأحدِ.

ومن ذلك مايجري من بعض الغيورين في مصر ـ مثلاً ـ من إنكار بعض المنكرات بصورة حماسيّة، فقد أُعلن مثلاً في جامعة أسيوط عن حفلٍ غنائي مختلطٍ، فقام عددٌ من الطّلاب ضدّ هذا المنكر، ودخلوا

مكان الحفل بالقوّة، وحطّمُوا آلات الفسق، ومنعوا إقامة الحفل في تلك الليلة.

وغيرُ أولئك المتحمّسين المندفعين ينظرُ إلى ذلك التّصرفِ على أنه شغبٌ وإخلالٌ بالأمن.

ولو وجد أولئك الغيورون سبيلاً شرعيًا للإنكار لم يلجأ أحدٌ منهم إلى مثل هذه الطّرق، ولكن سدّتْ أمامهم المنافذُ الصحيحةُ، وأوصدتْ دونهم الأبوابُ، فركبوا تلك المراكب الصّعبة وهم يقولون:

إذا لم يكنْ إلا الأسنةُ مركبًا فما حيلةُ المضطرِ إلا ركوبها

وقد كانوا ـ لا شكّ ـ عن ذلك في سعةٍ، ولهم عنه مندوحةٌ ـ

ومن صور التّفرق والتّمزّق التي تحدثُ في المجتمع بسبب ترك هذه الشّريعة أن تتفشّى بين النّاس منكراتُ القُلُوب من الغلِّ والحِقْدِ والحَسَدِ والبغضَاء والتّناحُرِ ومايترتّبُ على اختلاف القلوب من اختلاف التوجّهاتِ والآراء والأعمال والأقوال، بحيثُ إن المجتمع يهدم بعضه بعضًا، ويدمر نفسه بيديه.

فهذه من أعظم المنكراتِ التي يجبُ إنكارُها والتّحذيرُ منها، وسكوت العالمين والمعَلِّمين عنها سببٌ في انتشارِها ورسوخِها، وصعوبة الخلاصِ منها.

ثم إنّ «المنكر» إنّما صار منكرًا، ونهى الله ـ تعالى ـ عنه لما فيه من الخُبْثِ والضّرَرِ العاجَلِ والآجلِ، فالمعاصي وبالٌ على الأفْرادِ والمجتمعات، وسبَب لتمزّقِهَا وتشتتِها. ثم انهيَارُها وزَوالها، فالنّهي

عنها سياجُ حمايةِ الأمّة من آفاتِ الضّعفِ والتّخلْخُل والضّياع، **والسّكُوتُ عليها دليلٌ أكيدٌ على غيابِ معايير النّقدِ الصّحيح والتّوجيهِ البناء**، وهو تواطؤٌ آثمٌ مع القوى الشّريرة التي تريد بالأمّة سوءًا، وتسعى لهدم قلاع الخير والفضيلة والصّلاح.

فمعاصي البيع والشّراء من النجش والغشّ وبيع المعدوم والمجهُولِ وسائر أنواع البيُوع المُحرّمة، **والمعاملات المُنكَرَةُ** لها من الأثر الكبيرِ في تشتيتِ القلوبِ وتدابرِها وتباغُضِها ما لاينكرهُ ذو عقلٍ.

ومايُقال فيها يُقال في سائر أنواع المعاصي:

والسّكوتُ على هذه المنكرات هو نوعٌ من الرّضا بها وإقرارِها.

٤ ـ تسليط الأعداء:

فإن الله ـ جلّ وعلا ـ قد يبتلي المجتمع التّارك للأمرِ بالمعروف والنّهي عن المنكرِ **بأن يسلّط عليهم عَدُوًّا خارجيًّا**، فيؤذيهم، ويستبيحُ بَيْضَتَهُم، وقد يأخذُ بعضَ مافي أيديهم، وقد يتحكّم في رقابهم وأموالِهم.

وقد مُني المسلمون في تاريخهم بنماذج من ذلك، لعلّ منها ماوقع للمسلمين في **الأندلس**، حيثُ تحوّلتْ عزّتُهم وقوّتهم ومَنَعتُهم ـ لمّا شاعت بينهم **المنكراتُ** بلا نكيرٍ ـ إلى ذُلٍّ وهوانٍ سامهم إيّاه النّصارى، حتى صار ملوكُهم وسادَتُهم يُنادَى عليهم في أسواق الرقيق، وهم يَبْكُون وينُوحُون، كما قال الشاعر:

فلو رأيت بكاهم عند بيعهم   لهالك الوجْدُ واستهوتْك أحزانُ

وتقول أمُّ أحدِهم ـ وهو أبوعبدالله ـ آخر ملوك الطوائف ـ تخاطب صاحبَ الملكِ المضاعِ :

ابْكِ مثل النساءِ مُلْكًا مضاعًا   لم تُحافظْ عليه مثل الرِّجال

وشبيهٌ بذلك ما حدث في فلسطين من تسلّط اليهود على المسلمين، وتنكيلهم بهم، وطردِهم لهم، حتى صارت فلسطين أخت الأندلس، وحتى ذهبت كما قال الشاعر:

يا أخت أندلسٍ صبرًا وتضحيةً   وطول صبر على الأرزاءِ والنُوبِ

ذهبْتِ في لُجّةِ الأيام ضائعةً   ضياعَ أندلس من قبلُ في الحِقَبِ

وطوَّحَتْ ببنيك الصِّيدِ نازلةٌ   بمثلها أمةُ الإسلام لم تُصَبِ

٥ ـ عدم إجابة الدعاء:

الإنسانُ يلجأ إلى الله وحده عندما يمسّهُ الضرُّ، ويدعوه ـ سبحانه ـ أن يكشف عنه السوء، حتى المشرك يفعل ذلك: **﴿ثُمَّ إذا مَسَّكُم الضُّرُّ فإليْه تجأرون﴾** [سورة النحل، الآية: ٥٣]. **﴿وإذا مسَّكم الضُّرُّ في البَرِّ والبَحْر ضَلَّ مَنْ تَدْعون إلاّ إيّاه﴾** [سورة الإسراء، الآية: ٦٧].

والمسلِمون التّارِكُون لشعيرة **الأمر بالمعْرُوف والنّهي عن المنكر** عندما ينزل بهم العقابُ؛ يتّجِهُون إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ يدْعُونه، ولكنه لا يستجيبُ لهم، كما جاء في حديث حُذَيْفَة الذي سبق ذكرُهُ أن النبي، ﷺ، قال: «**والذي نفسي بيده، لتأمُرُنَّ بالمعْروفِ،**

ولتنهَوُنَّ عن المنكرِ، أو ليبعثنّ الله عليكم عقابًا منه، ثم تَدْعُونه، فلا يُستجابُ لكم»[1].

«ياالله! أو حقًا يدعو الناسُ فلا يستجيبُ الله لهم؟! الله الذي يقول: ﴿ورَحْمَتي وسِعَتْ كلّ شيء﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٦] الله الذي يقول: ﴿وإذا سألك عِبَادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيبُ دَعْوة الدَّاعِ إذا دعَانِ﴾؟! [سورة البقرة، الآية: ١٨٦] هل يمكن أن يحدث ذلك؟.

صدقَ الله، وصدق رسوله، ومايمكن أن يكون ذلك إلا حقًا. وإنّه لحقٌّ ترتجفُ له النفسُ فرقًا، ويقْشعِرّ الوجدان رعبًا. وماذا يبقى للناس إذن؟ ماذا يبقى لهم إذا أُوصدت من دونهم رحمة الله؟ ولمن يلجأوون في هذا الكون العريض كلّه وقد أُوصِدَ البابُ الأكبرُ الذي توصدُ بعده جميعُ الأبواب.. ويبقى الإنسان في العَراءِ، العراء الكامل الذي لا يستره شيء، ولا يحميه شيء من لفحة الهاجرة وقسوة الزمهرير.

ألا إنه للهولُ البشِع الذي يتحامى الخيالُ ذاته أن يتخيّله.. لأنه أفظع من أن يُطِيقه الخيال.

فهل كتب الله ذلك الهَوْل البَشِعَ على عباده ـ المسلمين ـ الذين يدعُونه ويسألونه ويستنصرونه؟.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٦٩) وأحمد في المسند (٥/٣٨٨).

نعم.. حين يكفّون عن الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو بأضعف الإيمان[1]».

٦ - الأزمات الاقتصادية:

قد تحلُّ الأزمــاتُ الاقتصـاديةُ بالمجتمـع المفـرّطِ في الأمـر بالمعـروف، والنهي عن المنكـر، فتتلاطم به أمواجُ الفَقْرِ والضّوائِقِ، ويذُوقُ الويلاتِ من الحرْمان.

ولقد وصلتْ الأزماتُ ببعض المجتمعاتِ الإسلامية إلى حال من الفقر يُرْثى لها، حتى أصبح الفرد يكدَحُ في سبيل الحُصُول على لُقْمَـة العيْش فلا يجدهـا، مما قد يحوجه إلى مافي أيدي النّصارى المترَبّصين الذين يُسخِّرون طاقاتِهم لتنصير المسلمين؛ فيؤدي ذلك إلى وقـوع المسلم في التّنصـير - والعياذ بالله - خاصة أن انشغاله بلقمة العيش قد ينسيه كثيرًا من أمور دينه، مما يبعده عنه، ويهونه عليه.

وهكذا المنكراتُ، سلسلةٌ يجرُّ بعضُها بعضًا إلى أن تَهْوي بصاحبها.

وكما أنّ هنـاك من يفسِّر ما يحلُّ بالمجتمعـات من الحروب والأحداث المؤلمة تفسيرًا ماديًا بحتًا، كذلك هناك من يفسِّر الأزمات الاقتصاديّة تفسيرًا ماديًا بحتًا، والمؤمنُ الذي يعي سنن الله، يُدْرِكُ أنّ وراء السّبب المـاديّ سببًـا شرعيًا حدث في المجتمع، فاستحقّ

---

(١) قبسات من الرسول، محمد قطب، ص٥٣، ٥٤، ط الثانية ١٩٦٢م.

ماجرتْ به سنة الله من معاقبة المجتمع الذي يظهر فيه الخبث بلا نكيرٍ.

كما أن هناك من تُسْفَكُ أعْرَاضُهم على مَذْبَحِ الرَّذِيلة، وتُدَاس كرامَتَهم جريًا وراء الدّرهم والدّينار. . إنّ كثيرًا من الجرائم وأماكن البغاء تتفشى في تلك الأحياء الشعبية التي يشيع فيها الفقرُ، وينتشر فيها العوزُ والفاقةُ.

ولعـلّ من أجـلى الصور وأوضحها في الدّمارِ الاقتصادي الذي يلحقُ المجتمعات بسبب **إهمال النهي عن المنكر: السّكوتِ عن الرّبا** ومايجرّه من تفاقُمٍ في المستويات المعيشيّة والاقتصاديّة، فيزيد الفقير فقرًا إلى فقره، ويزيد الغني ثراءً، فيُصْبِح المال دُولَةً بين الأغنياء، **وتسِيرُ الأمّةُ إلى هاوية الدّمار البعيد.**

وها هي ذي مراكزُ الدّراسات الغربيّة تتحدّث عن مصيرٍ أسود ينتظرُ الرأسمالية خلال عقدٍ أو عقدين من الزّمان، كذلك المصيرُ الذي آلتْ إليه الشّيوعيّةُ!.

﴿فهل ينتظرُون إلاّ مثل أيَّامِ الذِين خَلَوا من قبلِهمِ قُلْ فانتظروا إني مَعَكُم من المنتظرِين﴾ [سورة يونس، الآية: ١٠٢].

٧ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يوجبُ الـوقـوع في الشّهـوات والإغـراق فيها، وهذا من شأنه أن يجعل الناس مرتبطين بالدّنيا، أصحاب نفوسٍ ضعيفةٍ، غير جادّين.

فالشاب الذي ليس له همٌّ إلا أغنيةٌ ماجنةٌ، أو مجلّةٌ خليعةٌ، أو شريطٌ

مرئي هابطٍ، أو مكالمةٌ هاتفيّة شهوانيّة، أو سفرٌ إلى بلادِ الإباحيّة والتّحلل، هذا **الشاب** الذي أصبحت حياته كلُّها شَهْوةً هل يستطيعُ أن ينعتق من إسار الدّنيا، ويَجِدَّ في تحصيل العلم النّافع؟!.

هل يستطيع أن يحمل السّلاح؛ ليُدافع عن نفسه، وعن أمته؟!.

لا ريب أنه لا يطيقُ ذلك؛ لأنه تعوّد على الارتباط بالدنيا، والرّكون إلى الشّهوة، ولم يألف الجديّة والحزم.

وإنّك لتجدُ مصداقَ ذلك عندما تتأملُ في واقع كثير من الشّباب المبتعثين إلى البلاد الغربيّةِ ـ مثلاً ـ حيثُ ترى **الشاب** المتديّن المستقيم منهم جادًّا في تحصيله العلميِ؛ لأنه يحملُ هَمَّ أُمّته، لأنه لم يعبد الشّهوة، ولم يرسُفُ في أغلالِ الدنيا الدنيّة.

أما الشاب الشّهوانيُّ المنحرفُ فإنك تراه منغمسًا في شهواتِهِ ورغباته، غير جاد في تحصيله العلمي، تافِه الاهتمامات؛ لأنه لا يحمل إلا همَّ هواه؛ فتخسره الأمة، ويكون وبالاً عليها.

وهذه الحقيقةُ أدركها كلُّ البشر، حتى الوثنيُّون منهم، فإن **اليابان** ـ مثلاً ـ لما بعثتْ أول بعثةٍ من أبنائها للتعليم في بلاد الغرب، ورجع أولئك المبتعثون متحلِّلين من مبادئهم، ذائبين في الشخصية الغربية، منغمسين في الشهوات الفردية؛ لم يكن من **اليابانيين** إلا أن أحرقوهم جميعًا، على مرأى من الناس؛ ليكونوا عبرةً لغيرهم، ثم ابتعثوا بعثة أخرى، وأرسلوا معهم مراقبًا كان يقدم عنهم تقارير متواصلة، تُبين جِديّتهم ومحافظتهم على تقاليدهم الوثنية وغيرها. هكذا أدركوا أنّ

صَرْعَى الشَّهوات لايمكن أن يكونوا جادّين في يوم من الأيام .

وفي مجتمعاتِ المسلمين لا شك أن ترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو سبب غرق أبناء المجتمع في الملذّات والأهواء التي تقعدُ بهم عن معالي الأمورِ.

٨ ـ الإهمال في أخذ العدة:

سواء كانت عدةً معنويّة بقوّة القلوب وشجاعتها، أو عدّةً ماديّةً محسوسة تجهّز لمقاومة الأعداء؛ **فإنَّ الاستعداد لا يُتقنه ولا يلتفت إليه إلا أصحـاب الهمم**، المُعْـرِضـون عن السَّفاسِفِ. **أمّا صَرْعى الشّهوات** فليسوا أهلاً لذلك، بل إنّ مجرّد الكلام عن الحرب يُرعبهم، فضلاً عن خوضِ المعارِك، وركوبِ الأهْوَال.

٩ ـ هناك عقوبة جد خطيرة، وهي أن الأمة بدأ مسارها في عدد من البلاد الإسلامية يتغير، ذلك أنّ المنافِقين المفسِدين لم يكتَفُوا بإشاعة المنكَرات، بل مضَوْا يخطّطُون لِسَلْخِ الأمّة عن دينها جملةً، حتى تتحوّل إلى أمّة عَلْمَانِيَّةٍ لا دين لها، تقبلُ أن تحكم بأيّ شرِيعةٍ، وأن يشيع فيها أيُّ انحرافِ فكريّ أو خلقيّ .

وهذا التحولُ أخطرُ من سيطرة الكافرين والمنافقين عسكريًّا على البلادِ الإسلامية، **والواقعُ يشهدُ لذلك**، فإنّك لو تأمّلت لوجدتَ البلاد الإسلامية التي أُخذت من المسلمين بالقوة العسكرية محدودة، كالأندلس التي أخذها النصارى قديمًا، وفلسطين التي سيطر عليها اليهود قهرًا.

هكذا تبقى قليلة محدودة، ثم إن تأثيرها على مسار الأمة إيجابي؛

لأنَّ فيها إيقاظًا لها، وتحريكًا لغيرتها، وبعثًا لحميتها الدينية.

لكن لو تأملت في واقع كثير من البلاد الإسلامية التي كان يحكمها الإسلام ويشيع في أهلها المعروف؛ لوجدتها اليوم بلادًا علمانية، تحكمها نُظُمٌ غير شريعة الله، نظم تحمي الرذيلة، وتحارب الفضيلة، فتجد - مثلًا - في جامعاتها الاختلاط نظامًا محتمًا وتجد محاربة الحجاب، ووصف أهله بالرجعية والتخلف، إلى غير ذلك من فنون الإغواء.

هكذا وقعت الأمّة في براثن المنافقين، فسعوا جاهدين لسلخها عن دينها، بسبب غياب المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عن الساحة، أو ضعفهم في أداء رسالتهم.

والمجتمع ميدان لصراع الفئتين، ﴿والمؤمِنُون والمؤمِنَاتُ بعضُهم أولياء بعضٍ يأمُرُونَ بالمعْروفِ وينهَوْن عن المنكر﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧١]، ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾[سورة التوبة، الآية: ٦٧] فأي الفئتين غلبت؛ استطاعت أن تصبغ المجتمع بصبغتها.

ولذلك كانتْ قضيةُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضيةً مصيرية، يترتَّبُ عليها احتفاظُ الأمّة بمسارها الإسلامي؛ ولهذا السبب كان الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ في عهودِ الإسلام المتقدمة يحظى بأشد العناية من المسلمين أجمعين، فقد كان كل مسلم يشعر أنه مطالب بذلك، في كل مجال، وعلى سائر المستويات، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في بيته، وفي سوقه، وفي مسجده، وفي كل مكان، لا يفرق في

ذلك بين صغير أو كبير، ولا قريب أو بعيد، ولا معروف أو مجهول، ولا ذكر أو أنثى.

هكذا كانوا يشعرون أنّ ذلك الأمر دينٌ يدِينُون الله به، فلم يكِلُوهُ بأكملهِ إلى جهةٍ معيّنةٍ، ويلقُوا باللائمةِ عليها إذا رأوا منكرًا.

ومع ذلك كلِّه عُنِي المسلمون بنظام الحِسْبَةِ الذي كان رجاله يقومون بمراقبةِ المجتمع عمومًا في كلِّ شيء، ويسعَوْن لإصلاحه ومنع جميع أسباب أذاه، فيمنعون الباعة من الغشّ، وينصفون الدائن من المدين، وإذا رأوا مثلاً بيتًا آيلاً للسقوط عالجوا أمره بما يناسب، وإذا وجدوا شارعًا ضيقًا قاموا على توسيعه، وإذا رأوا نزاعًا فضوه، إلى غير ذلك من المهمات.

إذن.. كانت مهمّةُ رجالِ الحسبة مهمّةً شموليّةً، أصبحتْ اليومَ موزّعةً على عدّة جهاتٍ، من أنظمة مروريّة، وبلديّة، وتجاريّة، وغيرها، إلى جانب مهمّة مراقبة السّلوك والأخلاقِ وإيقافِ الناس عند حدودِ الله.

وماكان هذا الاهتمامُ البالغُ بنظامِ الحسبة الذي ظهر بوضوحٍ في عهدِ عمرِ بنِ الخطابِ إلا لإدْرَاكِ الأمّة لأثرِ تلك الشّعيرةِ في مسارها.

(حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

أجمعَ أهلُ العلمِ على فرضيّةِ الأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ فرضَ عينٍ أو كفايةٍ.

فذهبَ ابن حزمٍ ـ رحمه الله ـ إلى أنّه فرضُ عينٍ، لحديث أبي سعيد مرفوعًا: «من رأى منكُم منكَرًا فليُغيّرهُ بيدِهِ، فإنْ لم يَستَطِعْ فبِلِسَانه، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبقَلْبه، وذلكَ أضْعفُ الإيمانِ»[1].

وعند جماهير أهلِ العلمِ أنه فرضُ كفاية، وهذا هو الصّحيح؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ولْتَكُنْ مِنكُم أُمّةٌ يدعُونَ إلى الخيرِ ويأْمُرونَ بالمعروفِ وينْهَوْنَ عنِ المُنكَرِ﴾. (سورة آل عمران، الآية: ١٠٤). فإذا قامت الأمّةُ المذكُورة في الآية ـ وهي الطّائفةُ ـ بالمهمّة سقَطَتْ عن الباقين. ولكن يُشترطُ أن تكونَ هذه الطّائفة ممّن تتحقّق بهم الكفايةُ في إقامة هذه الشّعيرة.

على أن الأمرَ بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ يكونُ فرض عينٍ في بعض الحالات.

إضافةِ إلى أنّ الإنكار القلبيّ وكراهيَة المنكرِ والقائمين به، هو فرضُ عينٍ على الجميعِ باتّفاق العلماءِ، ولا يُعذرُ أحدٌ بتركهِ، لأنّه ممكنٌ لكلّ أحدٍ.

وهذه الحالاتُ هي:

١ ـ **إذا لم يعلم بالمنكر غير شخص معين**، فهو حينئذٍ مطالبٌ بالإنكارِ وجوبًا، لأنّ الكفايةَ لا تقومُ إلاّ به.

٢ ـ **إذا لم يستطع تغيير المنكر إلّا شخص بعينه**، فمثلاً قد تَشيعُ بعضُ المنكراتِ في وجهاءِ المجتمع وأعيانِه وكُبَرائه، فلا

[1] رواه مسلم (٤٩).

يستطيعُ كلُّ أحدٍ من المسلمين أن يُنكرَ عليهم، فيتعيَّن حينئذٍ على من يستطيعُ الإنكارَ من ذوي المكانةِ العلميّة والاجتماعيّة أن يُنكر عليهم.

٣ ـ يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من ولاه الله أمرا من أمور المسلمين، بدءًا بالسّلاطِين الذين ائتمنهُم الله ـ تعالى ـ على الأمّةِ، فإنّما شَرَعَ الإسلامُ الولايةَ العُظمَى لتحقيقِ الأمرِ بالمعروف والنّهي عن المنكرِ، وكلُّ مصلحةٍ تحتاجُها الأمّة فهي من المعروف، وكلُّ مَفْسَدةٍ للأمّة فهي من المنكرِ، سواءٌ كان ذلك في الأمور الدينيّة أو الدنيويّة.

ثم كلّ مسلم حسبَ ولايتِهِ ومسؤوليتِهِ، فالوزير مسؤولٌ عن رعيّته. ومديرُ الدائرة الحكوميةِ مسؤولٌ عن رعيّته. ومديرُ المؤسسة مسؤولٌ عن رعيته. والمدرسُ مسؤولٌ عن رعيّته. والأبُ مسؤولٌ عن أسرته. ورجلُ الحسبةِ المكلّفُ من قِبَلِ وُلاةِ الأمور مسؤولٌ عن القيامِ بمهمّته بقدرِ المستطاعِ.

وهكذا نجد أن كلّ فردٍ في الأمّة مُطالبٌ بأن يكون قَيّمًا على مَنْ وَلاّهُ الله أمرَهم؛ من أدنَى مسؤوليّةٍ إلى أعلى مسؤولية.

وها هنا قضيّةٌ خطيرة لابدّ من إثارتِها، وهي أنّ كثيرًا من النّاسِ اعتادوا أن يُلْقُوا بمسؤولية إنكارِ المنكرِ على غيرهم، فيلومُون ـ مثلاً ـ العُلماءَ والأمراءَ، لأنّهم يستطيعون تغييرَ المنكرِ، ويتنصّلون هم من

المسؤوليّة تمامًا، ولو اطلعتَ على بيتِ أحدهم فقد تجدُ فيه عشرات المنكرات لم يغيِّرها، وكأنّه ينتظرُ أن يأتيَ العلماءُ إلى بيتهِ ليغيّروها.

وهذه العادةُ خطيرةٌ وسيّئةٌ؛ فإنّ كلّ فردٍ في المجتمع مسؤولٌ عن إصلاحِ ما يستطيعُ إصلاحَه؛ لأنّه جزءٌ من المجتمعِ، يجبُ عليه القيامُ بمهمّته، كما يجبُ على العلماء وغيرهم أداءُ مهمّتِهم، ولو أنّ كلّ مسلم قام بما عليه من الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ لصَلُحَتْ الأمّةُ وأفلحتْ، وظهرَ المعروفُ واختفى المنكرُ.

أمّا إذا ظلّت الأمّة تتدافعُ القيام بهذا الواجب، فالعامّةُ تلومُ العلماءَ وتُطالبهم بالإصلاحِ. والعلماءُ يلومُون العامّةَ على خذلانِهم لهم، وكلّ فئةٍ في المجتمع تُلقي بالمسؤوليّةِ على غيرها، فيظلّ المنكرُ قائمًا ممكنًا إلى يومِ يبعثون.

(مراتب الانكار)

بيّن الرسولُ، ﷺ، مراتبَ الإنكارِ بقوله: «مَنْ رأى منكم منكرًا فليُغيّره بيده، فإنْ لم يستطعْ فبِلسانِه، فإنْ لم يستَطِعْ فبقلْبِه، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ»[1].

إذنْ، فالمطلوبِ من المسلمِ حين يرَى المنكرَ أن يُغيّره بحسبِ

(١) رواه مسلم (٤٩) وأبو داود (١١٤٠) والترمذي (٢١٧٣) والنسائي (١١١/٨) وابن ماجه (٤٠١٣).

المُستطاعِ ، متدرِّجًا في ذلك من أقوى صورِ الإنكار إلى ما هو دونها .

أمّا من حيثُ الواقع العمَلِي، فالذي يحدثُ **أولاً هو تأثُّرُ القلبِ ونفوره وإنكاره للمنكرِ** عندما يراه، ثم **يُرسِلُ القلبُ الأوامرَ إلى اللّسانِ** لينطِقَ بإنكارِ ذلك المنكر على مَنْ واقَعَهُ واقْتَرَفَهُ .

فإن امتثلَ وأقلعَ عن منكَرِهِ فهذا هو المُرادُ، وإلاّ كان الانتقالُ إلى التغيير باليدِ .

إذن فأوّلُ ما يحدثُ **هو التّغييرُ بالقلبِ، ثمّ التّغييرُ باللّسانِ، ثم التغييرُ باليد،** من حيثُ الواقع .

لكن المرادَ من المسلمِ هو أن يُغيِّر بيدهِ إن استطاع ، فإن عجزَ لجأ إلى التغييرِ باللسانِ، فإن عجز كفاهُ أن يغيِّر بقلبهِ، وذلك بأن يكره ذلك المنكرَ ويبْغِضه .

والإنكـارُ بالقلبِ فرضُ عينٍ على جميع المسلمينَ، في جميعِ الأحوالِ ؛ لأنَّ القلبَ لا سُلطانَ لأحدٍ من النّاسِ عليه، حتى يستطيعَ منعَ صاحبهِ من مَقْتِ المنكر وكُرْهِهِ .

ولهـذا قال النبي، ﷺ : « . . **فإن لم يستطعْ فبقلبِهِ، وذلك [أي التغيير بالقلب] أضعفُ الإيمانِ»**. وفي حديثِ ابن مسعودٍ: **«وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبَّةُ خَرْدَلٍ»**[1]. **أيّ أنَّ الذي يرى المنكر فلا يتحرّكُ قلبُه** ببغضِ ذلك المنكرِ والامتعاضِ له، **ليس في قلبهِ إيمانٌ**

---

(١) مسلم (٥٠).

البَتَّةَ، فضلاً عمَّن يرى المنكرَ فيُسَرُّ به ويفرحُ له - عياذًا بالله تعالى -.

* وها هنا أمرٌ جديرٌ بالوقوف عنده، وهو (التّلميحُ والتّصريحُ في الإنكـار)، فإنَّ الإسـلامَ دعـا إلى التّدرُّجِ في هذا الأمر، بحيث يكتفي المُنْكِرُ بالتَّلميحِ إن كان التّلميحُ مُجْديًا، فإنْ لم يُغْنِ شيئًا، انتقلَ المُنْكِر إلى التّصريح.

فقد كان الرسولُ، عليه الصلاةُ والسلامُ، يقول عندما يرى منكرًا: «ما بالُ أقوامٍ يفعلُونَ كذَا وكذَا؟»[1]؛ لأنَّ هذا التّلميحَ العامّ كان يكفي في كثيرٍ من الأحيانِ لردّ صاحب المنكَر عن منكَرِه. لكنه، ﷺ، كان إذا وجدَ أنَّ الموقفَ يحتاجُ إلى التّصريح فإنّه يصرِّحُ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أَمَرَ رسولُ الله، ﷺ، بالصّدقةِ. فقيل: مَنَعَ ابنُ جميلٍ . . . ، فقال النبيُّ، ﷺ: «ما ينقِمُ ابنُ جميلٍ إلاّ أنه كان فقيرًا فأغناهُ الله ورسولُه»[2]، هكذا صرّح النبيُّ، ﷺ، بابنِ جميلٍ؛ لأنّه أصرَّ على منع الزكاة.

وكـان الـرسـولُ، ﷺ، يُصلّي مرّةً بأصحـابه، فلمّا انصرف من صلاتِه قال: «يا فُلانُ! ألا تُحسنُ صلاتَك! ألا ينظرُ أحدُكم كيفَ يُصلّي! إنّي أراكم مِنْ وراء ظهري كما أَرَاكم من أمامي»[3].

---

(١) انظر مثلاً: البخاري (٥٧٥٠) و(٧١٧).

(٢) البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٩٨٣).

(٣) مسلم (٤٢٣).

والشـواهـدُ على سلوكـه، ﷺ، مسلك التّلميح إذا أغنى، والتّصريحِ إذا دعتْ إليه الحاجةُ؛ كثيرةٌ ومشهورةٌ.

وعلى ذلـك فإنّ الـواجبَ على المسلم إذا وجدَ إنسانًا مجاهرًا بالفسادِ، مثل الذي يكتبُ المقالاتِ المضلِّلةَ، والمؤلَّفاتِ الهدّامةَ، التي تُحـارِبُ الإسـلامَ، وتطعنِ في أهلِ الاستقامة، وتشوِّه تاريخَ الأمّـةِ المجيد؛ أقولُ: إنّ الواجبَ على المسلمِ أن يُعلنَ الإنكارَ عليه وأن يفضحه بين النّاس.

على أنّ هذا الترتيبَ في مراتب الإنكار ليس مطّردًا دائمًا. فثمّةَ حالات يتـطلّبُ الأمرُ فيها المبادرةَ بالإنكارِ باليدِ فورًا دون انتظار، وليس من المعقولِ أن يقفَ المسلمُ على رجلينِ مشتبكينِ في قتالٍ ومضاربةٍ، ثم يقفُ ليلقي عليهما مُحاضرةً في حقوقِ المسلم على أخيه، وحرمةِ دم المسلمِ ومالهِ وعرضهِ! بل يجبُ أن يتدخّلَ فورًا لفكِّ الخصومةِ بينهما متى كان ذلك ممكنًا له.

وهكذا لو وقفَ على فاحشةٍ أو منكرٍ يتطلّبُ القيام بتغييره بصفةٍ عمليّة مع القولِ أو بدونه.

(قضية الانكار باليد)

الإنكـار باليد هو المـرتبـةُ الأولَى من مراتبِ الإنكارِ، كما قال النبيُّ، ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكـرًا فليُغيِّره بيدِهِ...»[1]. ويكونُ

(١) انظر تخريجه ص٤٦.

التغييرُ باليدِ بإتلافِ المنكرِ؛ إمّا بإحراقِهِ، أو هدمِهِ، أو غيرِ ذلك.

والأصلُ أنّ الإنكارَ باليدِ مهمّةُ الجهةِ التي فُوِّض إليها ذلك، لكنّ هذه الجهةَ لا تُوجدُ أصلاً في كثيرٍ من البلاد، وقد توجدُ ولكنها لا تقومُ بعملها ومسؤوليّتها، وحينئذٍ يجوزُ الإنكارُ باليدِ للأفرادِ المُصلحين في المجتمعِ ـ كما صرَّح بذلك أهلُ العلم ـ، ولكنْ بأربعةِ شروطٍ:

أحدها: ما سبق ذكرُهُ من فقدانِ السّلطةِ والجهةِ المسؤولةِ التي يفوَّض إليها القيامُ بالإنكارِ باليدِ.

ثانيها: ظهورُ المصلحةِ الرّاجحةِ على المفسدة، أمّا إذا ظهر للمُنْكِر أن الإنكارَ باليدِ قد يُؤدّي إلى مفسدةٍ أكبرَ، مثل التّضييقِ على المصْلِحين الغيورِين، أو انتشارِ المنكرِ واتّساعِ دائرته؛ ففي هذه الحال يُمنعُ الإنكارُ باليدِ.

ثالثها: أن يتعذّر تغييرُ ذلك المنكرِ بغيرِ اليدِ، أي أنّ المنكِرَ حاول التغييرَ بلسانهِ فلمْ يستطِعْ، فله حينذاك أن يُغيّر بيدهِ.

رابعها: ـ وهو شرطٌ مهمٌّ ـ مراجعةُ العلماءِ في ذلك، فإنّ بعضَ الشّبابِ بسبب ما أعطاهم الله من الحيويّةِ والغيرةِ والتوقّدِ والقوّة، إذا رأى أحدُهم منكرًا فار الدّمُ في عروقهِ، ولجأ إلى التغييرِ بيدهِ بدون أن يُراجعَ أهلَ العلم العاملينَ الذين يُعْرَف عنهم أنهم ـ بلا ريب ـ مع الأمر بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر والدّعوةِ والإصلاح.

ومراجعةُ أولئك العلماء تنطوي على مصالحَ عديدةٍ:

المصلحـة الأولى: التيقُّنُ من أن نفـعَ هذا الإنكارِ أكبرُ من ضررِهِ. ذلك أن نظر الغيورِ المنفعلِ قد يكونُ قاصرًا، لكنّ العالمَ قد يكونُ أبعدَ نظرًا.

المصلحـة الثانية: أنّ الذي يُنكرُ باليدِ قد يتعرّض لأذىً في نفسِهِ، أو أهلِهِ، أو مالِهِ، أو وظيفتِهِ، أو نحوِ ذلك، فيحتاجُ حينئذٍ إلى وقوفِ أهلِ العلم معه، فإذا كان يَصْدُرُ عنهم فهذا يضمنُ له مساندتَهم له.

المصلحـة الثـالثـة: أنّ هذا يُدعَمُ أهـلَ العلم، ويقـوّي مكانتهم، ويُضاعفُ تأثيرَهم في تغيير المنكراتِ، فإنّ من أهمّ دعائم إنكـارِ المنكـرَات وجودَ العالِم الذي يلتفُّ الناسُ حوله؛ فيكتسب بذلك مَنَعة وقوةً تُمكّنه من الإنكارِ، وتجعل كلمتَه مسموعةً، وصوتَه مؤثّرًا.

فإذا توافـرتْ هذه الشـروطُ، وحـرص الأفـرادُ على مراعاةِ هذا الفقهِ؛ آتى الإنكارُ باليدِ ثماره، مع السّلامةِ من المحاذير والسّلبيّات.

أمـا التعجُّـلُ والاستجـابـةُ لانفعـالاتِ النّفسِ غير المنضبـطةِ والاندفاعِ وراءَ العواطفِ المجرّدة، فهذا لا يُثمرُ إلّا الفشل للمهمّة العـامّـة التي نذر المُصلحُ نفسـه لها، إضافةً إلى الفشلِ الفرديّ

للشخصِ ذاته بأن يؤول أمره غالبًا إلى نوعٍ من القنوطِ أو الإحباطِ أو الاستيئاس وتركِ العملِ ، والله المستعان.

(وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

الوسائلُ كثيرةٌ، لا تنحصرُ في مجالٍ أو نمطٍ معيّن، ومتى ما كان في قلبِ المرءِ اهتمامٌ بأمر الدينِ، وحرقةٌ للإسلام، وحرْصٌ على مستوى الأمّة؛ فإنّ هذا الشعور يدفعُهُ إلى ابتكارِ وسائلَ مختلفةٍ يستعينُ بها على إقامةِ هذه الشعيرةِ. وقد قيل: **(الحاجةُ أمُّ الاختراع)**.

لكنّ هذه الوسائلَ يجبُ أن يتحقّق فيها شرطان:

١ - **أن تكون مباحة**، فلا يجوزُ أن يستخدمَ المنكِرُ وسيلةً محرّمة ليزيلَ بها المنكرَ، فإنّ النجاسةَ لا تُغْسَل بالنجاسةِ.

٢ - **أن تؤدي المقصود**، بحيث يتمّ بها إزالةُ المنكَرِ، وتحقيقُ المعروفِ، وعلى ذلك فإذا كانت الوسيلةُ غيرُ مُجديةٍ، فلا داعيَ لاستخدامِها.

فإذا جَزَمَ بأنّها تُؤدي الغرضَ، أو غَلب على ظنّه ذلك كان عليه أن يتوسّلَ بها إلى تحقيقِ المقصود.

* ومن أبرز أمثلةِ الوسائل التي ينبغي استعمالُها في مجالِ الأمرِ والنّهي:

١- الكلمة الهادفة:

سواءً كانت تلك الكلمةُ محاضرةً، أو درسًا، أو خطبةً، أو موعظةً

بعد الصلاةِ، أو ما شابه ذلك، فمجالاتُ الكلمةِ واسعةٌ جدًا.

وها هنا أمرٌ جديرٌ بالتنبيه، وهو أسلوبُ الكلمة، إذْ لابدّ أن يكونَ مناسبًا، فيُراعَى مثلاً ألّا تكونَ الكلمةُ ضربةً في وجهِ صاحبِ المنكر، تصفعُه بها دون مقدّمات ولا تمهيدات.

خُذْ على سبيلِ المثال: المنكرات الظّاهرة المنتشرةِ بين النّاس، كالتّدخين وإسبال الثياب وحلقِ اللّحى... الخ.

إنّ هجومَ الإنسان على مرادهِ مُباشرة قد يؤدّي إلى نتيجة عكسيّة، وقد يخرجُ النّاسُ من جراء ذلك بانطباعٍ لا يخدمُ قضيةَ الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر.

لكن لو أنّك بدأت حديثك بقضيةٍ أكبر من هذه؛ بقضيّة التشبّهِ بالمشركين، ونهيِ الإسلام عن ذلك، وعِظَمِ خطورتهِ على دين المرءِ، وذكرتَ الأدلّة الشرعيّة، والأمثلةَ الواقعية لذلك، وسُقْتَ طرفًا من كلام المؤرّخين، ومن كلام الباحثين المعاصرين، وتدرّجتَ في عرض القضيةِ، حتى تصلَ إلى ضربِ بعضِ الأمثلةِ للتّشبّه بالمشركين من الواقع، وتأتي بقضيةِ حلقِ اللحيةِ مثالاً لذلك، وتدعم كلامك عنها بما وردَ من نصوصٍ في الأمرِ بإعفاءِ اللّحى، كقولهِ، ﷺ: «وفّروا اللّحى»[1]. ومضيتَ في بسطِ القضيّة وعرضِهَا على هذه الشّاكلة، فإنّكَ إنْ وُفِّقْتَ في ذلك العرض اللبقِ، فإنّ

(١) رواه البخاري (٥٥٥٣) ومسلم (٢٥٩).

الحاضرينَ المستمعين إليك ـ وإن كانوا حليقي اللحى ـ سوف يتقبّلون النّصيحة، وتدخُلُ قلوبَهم.

وقد وقع لي مرّةً أن زرتُ مدرسةً في إحدى مناطق هذه المملكةِ، فرأيتُ في المدرسة كثيرًا من المُنكراتِ، فآليتُ على نفسي أن أقولَ شيئًا عن ذلك، وفعلاً تحدّثت إليهم، فبدأتُ بكلامٍ عامٍّ عن الشبابِ ومشكلاتِهم، وخُططِ الأعداء الغربيين للقضاءِ على الشبابِ، حتى ارتاح الحاضرون إلى هذا الكلام، وأحسُّوا أنّه كلامٌ يحتاجون إلى مثلِه، وربّما لم يسمعُوه قبلاً؛ لأنّ المنطقةَ نائيةٌ.

بعد هذا تكلّمتُ عن الاعتزازِ بالإسلام، وأنّ المسلمَ هو الأعلى في عقيدتـِه، وسلوكِـه، ومنهجـِه وتاريخِه. . ، وذكرتُ أن المسلمَ العزيزَ العالي لا يقلِّدُ الكافرَ النّازلَ، كما أنّ الكبيرَ لا يقلّدُ الصغيرَ، والمدرّسُ لا يقلّد الطّالبَ، وإنّما الذي يحدثُ هو عكسُ ذلك، فالصّغير يُقلّد الكبيرَ، والطّالب يقلّد أستاذَه، والمغلوبُ يقلّد المنتصرَ.

ثم انتقلتُ إلى الحديث عن التّشبّهِ بالمشركين، وما ورد فيه من نصوص، ثم أدخلتُ كلَّ المنكراتِ التي رأيتها في المدرسةِ في باب التشبّهِ، وتحدّثتُ عنها.

فلمّا انتهيتُ خَرَجَ معي أحدُ المدرّسين، وحدّثني قائلاً: جزاك الله خيرًا. إنّك أنكرتَ علينا ولم نجدْ في نفوسِنا من هذا الإنكارِ شيئًا،

لكنّ فلانًا من الناس ـ ذَكر شخصًا ـ على الرغم من صِغَرِ سنّه، وقلّة خبرتِهِ، يصعدُ المنبرَ، ويتكلّم بكلمات مبتذلةٍ عن بعضٍ هذه المنكراتِ، تكون سببًا في نفرةِ النّاس وعزوفهم عن المتحدّثِ وخطبتِهِ، وربّما أدّى إلى إصرارِهم على ما هم عليه، واستمرائِهم لما يفعلونَ.

وقد يستفتحُ المتحدّثُ كلمَته بمقدمةٍ عن المقاصدِ العامّة للشريعةِ، وحفظِ الإسلامِ للدّين، وللنّفسِ، والعرضِ والمالِ، والنّسبِ والعقلِ، ليسترسلَ بعد ذلك في أمثلةٍ معنيّةٍ مقصودةٍ ممّا حرّمه الإسلامُ، رعايةً لهذه الضروراتِ المحفوظةِ المصونةِ، ليكون الكلامُ أجزلَ وأمتن وأوقعَ في النّفس، وأدعَى للقبولِ.

هذا إلى أن الداعيَ ليس يسوغُ له أن يجعل كلَّ حديثِهِ نقدًا وتخطئةً للآخرينَ وحشدًا لمساوئِهم وذنوبِهِم، إذ كأنهم يفهمون من هذا أنّه لا يرى فيهم حسنةً تستحقُّ الإشادة، وقد قال الرسولُ، ﷺ، للأشجّ، أشجّ عبدِ القيس: «إنّ فيكَ خصلتين يحبّهما الله: الحلمُ والأناةُ»(١).

وأثنى ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ على جماعات من أصحابِهِ، كخالدِ بن الوليدِ، وعبدالرحمنِ بن عوفٍ، وطلحةَ وسواهم كثيرٌ.

فالثّناء على الإنسانِ ـ فردًا أو جماعةً ـ بما هو فيه لغرضٍ شرعيّ

(١) رواه مسلم (١٨).

صحيح أمرٌ لا غُبارَ عليه.

فلا بأس أن يزيّن الـدّاعيةُ نُصْحَـه بثنـاءٍ جميلٍ مقتصـدٍ على حسناتٍ لدى المنصوح ـ فردًا أو جماعة ـ يكون في ضمنها دعوةٌ له إلى نشدان الكمال البشريِّ الممكنِ له.

ولا بأسَ أن يتعـاهـدَهم بالنّصـحِ بين حين وآخـر، لئـلّا يملُّوا ويسأمُوا، ولا يحشُد لهم كلّ ما ينتقدُه عليهم في قعدةٍ واحدةٍ!.

٢ـ الكتاب والكتيب:

وذلـك بالكتـابـةِ والتّـأليفِ في إنكـار شيءٍ من المنكـراتِ، أو بالإسهام في توزيع ما كُتب في ذلك، فكلٌّ بحسبِ طاقتِه: فإنْ كنت طالب علم تستطيع الكتابة في موضوع ما، فاكتب وأنكر المنكر، وبيِّنْ للنّاس الخير من الشرّ، واسْعَ في طباعةِ ما كتبتَ ونشرِه. وإن لم تستطعْ ذلك فأسْهِم في توزيعِ الكتابِ عن طريقِ بذْلِ المالِ. فإنْ لم يكن عندك مالٌ، فشارِكْ في عمليّة توزيعِ الكتابِ بجهدكَ البَدَني، في المؤسّساتِ، والمدارسِ، والمساجدِ، والدوائرِ، وغيرها.

وهكـذا يقـومُ كلُّ شخصٍ بمسئوليتهِ في هذا المجالِ بحسبِ قُدراته وإمكاناتهِ، ولو أنّ كلّ مسلمٍ غيورٍ قام بواجبه ـ أو بعضه ـ لكـان معنى ذلك أن الدّعاة يملكُون أعظم مؤسساتِ التوزيعِ في العـالم.. ولكـانت الدّعوةُ الإسلاميّة تملكُ من المراسلين جموعًا

غفيرةً لا تملكها دعوةً أخرى في الدّنيا كلّها.

٣ـ النشرة الصغيرة:

وهي تُسمَّى المطْويَّة، وتتكوّنُ من بضعِ صفحاتٍ تُعالج موضوعًا معيّنًا، ومن ميزاتها أنّ من السّهل أن يقرأها المرءُ على عُجالةٍ، فحسنٌ أن يستفيدَ الذي يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ من هذه الوسيلةِ، ويُشاركُ في توزيعها ونشرِها لتوعيةِ النّاس.

٤ـ الشريط:

سواءٌ بإعدادِ شريطٍ يحتوي على مُعالجةٍ لبعض المنكراتِ، أو بالإسهام في نشر هذا النوع من الأشرطة بقدر الإمكانِ، خاصّة أنّ أكثر البيوتِ اليومَ ـ بل كلّها ـ لا تخلو من أجهزة تسجيل. كما أنّ بإمكان المُصلح أن ينسخَ من الشريط نُسخًا عديدةً، ويوزّعُها؛ ليستفيدَ النّاسُ ممّا فيها من الخير، وأقلُّ ذلك أن يدفعَ الشريط بعد استماعِهِ إلى آخر يسمعهُ ويستفيد منه، إنّ طالبَ المدرسةِ الابتدائيةِ يستطيعُ أن يوفّرَ من قيمة الشاي الذي يشتريه من المقصف المدرسيّ ما يشتري به كُتيبًا أو شريطًا في الشّهر أو في الأسبوع.

٥ـ الجريدة:

الجريدة واسعة الانتشار، فقد يُطبع من بعضها مائةُ ألف نسخة، أو مائتا ألفٍ، في اليوم الواحدِ، فينبغي الكتابةُ فيها لإنكار بعض المنكراتِ، خاصّة إذا كان المنكَر قد انتشر في الجريدة نفسها، فلا

يكفي أن تذكرَ أنّ هذا منكر في مجلسٍ يحتوي على فئةٍ قليلةٍ من النّاس، والجريدةُ قد قرأها مائة ألف أو يزيدون، وإنّما عليك أن تكتب مقالةً، وتراعي فيها قواعد النّشر، وتبعث بها إلى الجريدة؛ لكي تنشر ويستفيد منها أكبرُ عددٍ ممكنٍ من النّاس.

٦ـ الهاتف:

فبالإمكان أن تتّصل بصاحب المنكَرِ، وتأمره بالمعروفِ، وتنهاه عن المنكرِ، أو تتّصل بمن يستطيع تغيير المنكرِ؛ من علماءَ، ومسؤولين، ووجهاء.

أرأيت حين تُعْلن جهةٌ عن عمل لا يُرضي الله، فتنهال عليه الاتصالات الهاتفيّة من أطراف شتّى، ألا يكون ذلك مؤثّرًا في دفع المنكر

أذكر أنني اتّصلتُ مرّةً بمؤسسة أعلنت عن حفل مختلط في إحدى الدول المجاورةِ، فَعَرَّفتُ المسؤول بنفسي، ومكان اتّصالي، وكلّمته عن الإعلان المذكور، فاعتذر، وقال: إنّ هذا الإعلانَ نزل بطريق الخطأ، وقد أعلنّا في الجريدة في اليوم التالي نقدًا لهذا الإعلان ربّما لم يتسنَّ لك الاطلاع عليه، وإنّ النّاس قد اتّصلوا بنا من كلّ مكان، حتّى كبار العلماء والمشايخ اتّصلوا واستنكرُوا الأمر، وقد بلّغناهم بحقيقة الأمرِ، ونحن نشكركم.. إلخ.

والشّاهد من ذلك أنّنا حين نتّصل على صاحب منكرٍ، فإنّنا بذلك نُفْهم النّاس ماذا يُريد المجتمع.

والهاتف ـ من خلال التّجربة ـ وسيلة **فعّالة جدًّا**، ومؤثِّرة في هذا المجال، على أنّها لا تكلّف جهدًا أو عناءً، فكلّ ما في الأمرِ مَبْلَغٌ من المال مقابل هذه المكالمة يكون في سبيل الله ولا يضيعُ، وبمجرّد رفع السّمّاعة وإدارة قرص الهاتف تجد أنّك إنسان إيجابي ومؤثّر.

٧ ـ الرسالة الشخصية:

وما أبلغ أثر الرّسالة **الشّخصية** على قارئها متى كتبت بأسلوبٍ لبقٍ مهذّب يخاطب مكامن العاطفة في النّفس البشريّة.

إنّها حديث مباشر هادىء، يُعطي الآخر فرصةَ التّفكيرِ والمراجعة والتّصحيح، وهو بعيد عن الكلمات التي قد يزل بها اللّسان من دون قصدٍ، إذ إن **الكتابة** تمنح الدّاعي فرصةَ التفكير فيما يكتب ويسطّر.

وحتى لو خاطبت قطاعًا عريضًا من النّاس، **كباعةِ الأغاني**، أو **متعاطِي الرِّبا**، **أو مروجِي الأفلام** الهابطة، أو **أصحاب المحلات التجاريّة**، أو أي طبقة من طبقات المجتمع.

لو خاطبتهم برسالة مطبوعة على جهاز «الكمبيوتر» تسجّل على كل نسخة اسم المحل الذي توجّه إليه لكان **لها وقعٌ خاصٌ** مؤثّرٌ، أعظم من وقع الكتاب أو الشّريط الذي لا يُخاطب المعنيّ مباشرة.

٨. مقاطعة صاحب المنكر:

بحيث يتمّ الامتناعُ عن معاملةِ المكان أو المؤسسة التي يُوجد فيها المنكر.

فبيوت الرِّبا التي تُجاهر بحرب الله ـ تعالى ـ وحرب رسوله، ﷺ، ﴿يا أيُّها الذِينَ آمنُوا اتّقوا الله وذَرُوا ما بقيَ من الرِّبَا إنْ كُنتم مُؤْمنينَ. فإنْ لم تَفْعَلُوا فأْذَنُوا بحربٍ مِنَ الله ورسولِهِ﴾. (سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨، ٢٧٩). هذه البيوت من أين شبّت وترعْرَعَت وقويت؟! أليس من أموالِ المسلمين!!

والمجلّةُ الماجنة. ما الذي ضمن لها الاستمرار والرّواج والثّراء. حتى أصبحت لا تخرجُ إلاّ في ورق صقيل وطباعة فاخرةٍ؟! أليس أموال المسلمين!!

وكلّ مؤسسات الفساد والانحراف والرّذيلة إنّما كفل لها الذّيوع والبقاء إقبال الناس عليها، وعلى ما تبثُّه من سموم، ودعمُهم لها بأموالهم، من حيث يشعُرون أو لا يشعُرُون.

ولو أنّ المسلمين قاطعوها؛ لانتهت تلقائيًّا، ولوُئدتْ في مَهْدِهَا.

لكنّ الواقع المرّ أنّ أحد المسلمين أجّرها مقرًّا، والآخر توظّف فيها، والثّالث تعامل معها، والرابع دعا إليها.. وهكذا حتى صار المجتمعُ ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ ينفخ روح الحيويّة والقوّة في مثل هذه المؤسسات، ثم يعود النّاس يمتعِضونَ منها ويستاؤون، ولا

نقولُ لهم إلاّ : «يداكَ أوكَتا وفوكَ نَفَخ».

* وعلى سبيل المثال لو أنّ أحدنا دخل على صاحب تموينات يبيع فيها الدّخان والمجلات الفاسدة، فقال له: يا أخي لماذا تَبِيعُ هذه المحرّمات؟ فسيقول: لو لم أبعها لما عاملني الزّبائن. فليردَّ عليه قائلاً: وهل أنا إلاّ من الزبائن، إنّي سأقاطع تموبناتكم إلاّ أن تطهِّروها من هذه المحرّمات. ثم يأتي ثانٍ وثالثٌ ورابع.. ويكون لهم الموقف نفسه، وبعد ذلك ستجدُ أنّ الرّجل أخلى محلَّه من تلك المنكرات، فإذا جاءه شخصٌ يبحث عن شيءٍ منها، قال له: إنّ الزّبائن رفضُوا أن يشتروا منّي وعندي هذه الأشياء.

وهكذا تؤدّي هذه الوسيلة مفعولها إذا تعاون أهل الخير، وأثبتُوا وجودهُم، خاصّة أنّ النّاس لا يزال فيهم خير كثير؛ مما يجعل إمكان استجابتهم كبيرًا بإذن الله ـ تعالى ـ.

٩ ـ التشهير:

إذا لزم الأمر، ودعا الموقف إلى اللجوء إلى التّشهير بالمنكرِ وصاحبِهِ، فلا بأسَ، كما تقدّم معنا ذكر تصريح الرّسول، ﷺ، باسم ابن جميل وما فعل من منكر.

والتّشهير يأخذ صورًا شتّى، فليس بالضّرورة أن يكون التّشهيرُ إعلانًا على المنبر، بل له أساليب مختلفة، ولْنَضْربْ لذلك مثلين، أحدهما من القديم، والآخر من الحديث.

المثال الأول: كان لأحد المتْرَفينَ في بغداد بيت تعلو منه أصوات الغناء والطّرب والمزامير واللّهو، فطرق عليه بعض الصّالحين الباب، فلم يستجب، وحاولوا ثانية وثالثة، فلم يستجب لهم. وكان في بغداد قارئٌ بَكّاءٌ مؤثّر حسنُ الصّوت، فجاء في أحد الأيام ـ وكان الناس مزدحمين في الشّوارع ـ فجلس على عتبة هذا البيت الذي تعلو منه أصوات المنكرات، وأخذ بصوته العذب الجَهْوريّ يرتّل القرآنَ، فاجتمع الناس إليه، وامتلأ الشّارع بهم، وعلت أصواتُهم بالبكاء والنشيج، حتى سمعهم الذين بداخل الدّار، فخرج صاحبُها وأخرج معه الطبول وسائر آلات اللّهْو، وسلّمها للشيخ ليكسّرها بيديه.

وعلى هذه الشّاكلة استطاع هذا القارىء أن يُغيّر المنكر عن طريق التّشهير، بدون أن يتكلّف، وبدون أن يُجافي الحكمةَ.

المثال الثاني: ما فعله بعضُ الدّعاة المعاصِرين، حين علم عن إقامة حفل غنائي فيه لهو وطرب ومنكرات، وعجزَ عن إيقاف ذلك المنكر، فما كان منه إلاّ أن أخبر الصّالحين، بأنّه سوف يُقيم محاضرةً في مكان مجاورٍ لمكان المنكَر، وفعلاً أقام المحاضرة، وأخذ يتكلّم بكلام مؤثّر جيّد، فانسحب النّاس من مكان الحفل إلى المحاضرة، وأُوقف الحفل الغنائي.

وهكذا أُوصد الباب في وجه المنكَر وأهله بطريقةٍ هادئةٍ، لا مأخذ

فيها على المصلح.

إنّ هذه الوسائل ليست سوى أمثلة أو نماذج لوسائل أخرى كثيرة، يمكن أن يبتكرها الغيورون لإزالةِ المنكرات، وتغييرها وحماية المجتمع منها، وسيجد المُصلح أمامه مجالاً رحبًا للتّفكير في تجديد الوسائل وتنويعها متى كان جادًّا منفعلاً لقضية الإسلام، متحلّيًا بالعلم الصّحيح الذي يفتح أمامه آفاق المجهول.

(من الذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟)

لا شكّ أنّ جمهور الأمّة إذا رأوا المنكرات غضِبوا، وغارُوا، وفار الدّم في عروقهم، فإنْ وجدُوا المجالَ الطّبيعيَّ للإنكار؛ اكتفوا به ولم يزيدوا عليه. والمجالُ الطّبعي في نظري أحدُ قناتين

القناة الأولى: الجهَات الرسميّة المسئولة عن الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر.

القناة الثانية: أن يسير الناس ـ إذا لم يجدُوا القناة الأولى ـ خلف العلماءِ الّذين يتحمّلون مهمّة الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر.

فإذا لم يجد النّاس إحدى هاتين القناتين فإنّهم حينئذٍ يعتمِدُون على اجتهادِهم، والاجتهادُ قد يُصيب وقد يُخطىء، وهم معذورون في ذلك؛ لأنّ كفّ اليد والسّكوتَ عن المنكر بالكليّة أمرٌ يُنافي

طبيعة هذه الأمّة المجاهدة، ويُصادم المبادىء التي تنطلق منها في حياتِها، وضررُه قد يكون أحيانًا أعظم من الضَّرر النّاجم عن الإنكار غير المتأني الذي يحدث من عامّة النّاس حين لا يجدون القناة السليمة الملائمة للإنكار والتّغيير.

وأكثر النّاس يشعرون بمفسدة الإنكارِ المتعجّل وضررِه، ولكنّهم لا يشعرون بمفسدة السّكوتِ على المنكرات.

وكم رأينا من رافعٍ عقيرته بثلب إنكار يرى فيه نوعًا من التّسرُّع وعدم الانضباط، لكنه لا يتحدّث بالحماس نفسه، بل ربّما لا يتحدّث مطلقًا عن أولئك القاعِدين الذين استمرؤوا المنكر ورضوْا به، وسكتُوا عليه، مع أنَ خطاهم أعظم وأطمّ، بل ربَما يكون تسرَع الآخرين ناتجًا - أصلاً - عن خطإ السّكوت والإغماض.

ومتى وُجِدَ المنكرون بعلمٍ وحكمةٍ وصدقٍ قلّت احتمالات حدوث إنكارٍ متسرّع غير متّزن.

ومتى فقد الإنكار الشّرعي الصّحيح فعلى المجتمع - بعامّته وعلمائه ودعاته - أن يكون مستعدًا لاحتمالات حدوث إنكارٍ غير شرعي، والسنّة جارية لا تُحابِي أحدًا ولا تُجامِله.

(آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

إنّ الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يتعامَلُ مع نفوسٍ بشريّة؛ فلذلك لابدّ أن يتحلّى بصفات معيّنة، تُيَسِّر له المضيَّ في

هذا الطّريق، وتحميه من الشّطط ـ بإذن الله ـ.

وأهمّ تلك الصّفات:

١ ـ العلم: إذ لابدّ أن يعلم أنّ هذا منكرٌ؛ ليُنكره، وأنّ ذاك معروف؛ ليأمر به، وأن يعرفَ وجه كون هذا منكرًا وهذا معروفًا، وأن يعلم الطّريقة المثلى للأمرِ والنّهي.

وأمّا الذي يُنكر عن جهل فقد يُفسد أكثر ممّا يُصلح، وإنّك لترى كثيرًا من الجُهّال ينكرون مالم يألفوه، وإنْ كان معروفًا في الحقيقة، ومن أمثلة ذلك أنّي صليت الفجر يومًا من الأيام إلى جوار أحد العوامّ، فبعد أن تنفّلتُ راتبة الفجر، وتناولت المصحف لأقرأ شيئًا من القرآن؛ قال لي: لا، ما يصلح هذا، لابدّ إذا انتهيت من النّافلة أن تسلّم على مَنْ هو على يمينك، ثمّ تسلّم على الذي عن يسارك، ثم ترفع يديك وتدعُو بما تُريد، ثمّ تقرأ القرآن. فقلت له: سبحان الله! هل تعلم دليلاً على مشروعية سلام الإنسان بعد النّافلة على مَنْ هو على يمينه وعلى شماله؟ فقال: لا والله. قلت: هل تعلم دليلاً على مشروعية واستحباب رفع اليدين بعد النّافلة؟ قال: لا، ما أعلم. فقلت: لماذا تُنكر إذن؟ فقال: علّمني جزاك الله خيرًا. فأخبرته أنّ هذه الأمور ليست سنّةً يُنْكَر على تاركها، بل هي في هذا الموضع بالذّات ـ بعد الصّلاة فريضةً أو نافلةً ـ غير مشروعة، ومن أهل العلم من حكم ببدعيّتها، وأمّا أصل السّلام فمشروع، وأصل

رفع اليدين بالدّعاء مشروع، ولكن التزامه بعد الصّلوات النّوافل
محلّ النّظر.

إذن فلابدّ أن يكون المُنْكِر عالمًا على الأقل بما يُنكِر وبما يأمر ب

٢ ـ **الرفق والحلم:** لابدّ للآمر النّاهي أن يروّض نفسه ع
الرّفق والحلم، فإنّ التشنُّج والانفعال قد يُسبّب إخفاقًا في إنك
المنكر، بل قد يؤدّي إلى مضاعفته واتّساع دائرته. ولا ريب أنّ ك
من المنكرات إذا رآها الغيور فإنّه يغضب ويشتدّ، مهما كان فيه
الانضباط، فليحرص على إلجام نفسه بلجام الرّفق والحلم، ومر
المصالح.

كما أنّ المُنكِر قد يجد من المنكَر عليه فظَاظَة أو ردًّا جار
فلابدّ أن يُقابلها بصدرٍ رحبٍ، وبدون انفعالٍ، وأن يردّ عليه بابتس
لطيفة، أو بِطُرْفةٍ تمتصّ الغضبَ، وتفوِّت الفرصة على صا
المنكَر أن يستفزّ المُنْكِر.

٣ ـ **العدل:** أي أن يكون المنكِر عادلاً، فلا يجور على صا
المنكَر؛ فينسى فضائله، ويضخِّم سيئته، وإنّما يشهد له بحسـ
وفضائلِه ويذْكُرها له، فيأتي مثلًا إليه ويقول له: يا أخي أنت ر
فيك خيرٌ كثيرٌ، أشهدُ أنّك تُحافظ على صلاة الجماعة، ولديك
الفضائل كيت وكيت، ولكن:

ولـم أرَ في عُيـوب النّـاس عيـبًا
كنـقص الـقـادريـن على الـتـم

فليتـك يا أخي تترك المنكَر الفلاني؛ حتّى تزداد خيرًا وفضلاً، وبُعدًا عن السّيّئات.

وبهذا الأسلوب العادل تكون فرصةُ القبول والاستجابة أعظمَ، أمّا إذا تجاهلَ المنكِر حسناتِ المنكَر عليه، وأهدرها جميعًا، فإنّ هذا يكون مَدْعَاة للنّفور وعدم القبولِ.

والعدلُ كذلك مطلوبٌ في قول الحقّ ولو على المنكِر نفسه فيما لو طالت القضيّة، ووصلت إلى المحكمـة، ورفعت إلى القضاء، فلينتبه لذلك.

٤ ـ **الحكمة:** وقضيّة الحكمة في باب الأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكـر تُشْكِل على كثيرٍ من النّاس، سواء من المنكِرين، أو المنكَـر عليهم. فبعض النّـاس يظنُّ أنّ الحكمـة تعني ترك الأمرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر، فلو قلتَ له: يا أخي بارك الله فيك قم صلِّ؛ لقال لك: سأقوم، ولكن تكلُّم معي بحكمة. هكذا يقول، مع أنّك لم تزد على أن وجَّهتَ إليه نداءً أخويًّا، وحثثته على أداء فريضـة. وفي مقابل ذلك قد لا يتحرّى بعض المسلمين الحكمة تحرِّيًا كافيًا؛ فيكون موقفهم من المنكَر غير سليم، إنْ سلبًا وإنْ إيجابًا.

والحقّ أنّ الحكمة في كلّ شيء بحسَبه، كما قال الشاعر:

ووضْـعُ الـنَّـدى في موضـع الـسّـيـف بالـعُـلا
مُضِـرٌ، كوضـعِ الـسّـيـف في موضـع الـنَّـدَى

فمن الحكمة أن تستخدم اللِّين في موضعه، كما أنَّ من الحكمة أن تستخدم الشدّة في موضعها.

وللتّمثيل لهـذه القضيّة أذكر القصَّة التي في الصّحيح، قصَّة الغلام الذي من بني إسرائيل، وهي طويلة، لكنَّ الشاهد منها ما جاء في آخرها من أن الغلامَ قال للملكِ بعد أن عجزَ الملك عن قتله: هل تريـد أن تعـرف كيف تقتلني؟ قال: نعم. قال: اصلبني إلى جذع شجرةٍ، ثم اجمع النّاس كلّهم، ثم خُذْ سهمًا وقل: بسم الله ربّ الغلام وأرسل السَّهم فسيقتلني. ففعل الملك ذلك، فقال الناس كلّهم بصوتٍ واحد: آمنّا بربّ الغلام. آمنّا بربّ الغلام[1].

هكذا ضَحَّى الغلامُ بحياته؛ لأنَّ الحكمة ـ بلا ريبٍ ـ تكمن في هذا التصرّف، فإنّ موت ذلك الفرد ترتَّبَ عليه حياةُ أُلوفٍ مؤلَّفة من النّاس، فبعد أن كانوا أمواتًا صَرْعَى للكفرِ، أصبحُوا أحياء بالإيمان بالله ـ تعالى ـ.

وقد لا يستطيع المرء أن يقدِّر موطن الحكمة في معالجةِ بعض القضايَا، فينبغي له حينئذٍ أن يستشيرَ غيره، وأن يستنير برأيه؛ ليكمل النّقص الذي قصَّر به عن إدراك موضع الحكمة والموقفِ السليم. وقد قيلَ: النّاس ثَلاثَةٌ: رجلٌ كاملٌ ـ أي الكمال النسبيّ ـ وهو الذي له عقلٌ ويستشير، ونصفُ رجلٍ، وهو الذي له عقل لكنه لا يستشير، والثالثُ لا شيء، وهو الذي لا عقلَ له، ولا يستشير.

---

(١) مسـلم ٣٠٠٥.

فاعمـلْ على أن تكون الأوّل، فإنّ لم تبلغ ذلك، فكن الثاني ـ على الأقل ـ، وإيّاك أن تكون الثالث.

٥ ـ الصبر: فإنّ الآمـر بالمعروفِ النّاهي عن المنكر معرَّض للأذى، فلا يليق أن ينـزعج ويجزع، ويتركَ مهمّته، أو يتبرَّم بها، ولـذلـك قال لقمـان لابنـه وهـو يعظه: ﴿يا بُنَيَّ أقِمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عنِ المُنكَرِ واصبِرْ على ما أَصَابَكَ إنَّ ذلكَ مِنْ عزْمِ الأُمورِ﴾. (سورة لقمان، الآية: ١٧).

ذلك أنّ طريق الأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ ليس مفروشًا بالـورود والرّياحين، بل هو مليءٌ بالأشْوَاكِ والصّخور والمصاعب الجمّـة، فمن لم يتـذرَّع بالصّبـر خليقٌ به أن يستـطيل الـطّريق، ويستَثْقِلَ العملَ، فيتخلّى عن المهمّة الرّبَّانيَّة الكريمة التي انتَدَبَ نفسه لها.

عجيبٌ أمر بعضنا! يقول: عندي أخٌ أو زميلٌ أو قريبٌ لا يُصلِّي أو يشـرب الخمـر أو. . أو. . ، فإذا قيل له: انصحـه واجتهد في نصحه، قال: عجزتُ عنه، أو قال: ما فيه فائدة! سبحان الله!! أين ذهبت ﴿فلبـث فيهم ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامًا﴾. (سورة العنكبوت، الآية: ١٤). عن عقلـك؟ أين الصَّبر الجميل؟ أين طول النَّفَسْ؟ أين دأب الدّعاة وإصرارهم؟

أمِنْ مرّةٍ أو مرَّتين أو عشر مرّات. . تقول: عجزت. . أو لا فائدة؟

ربّما أنّ الكلمةَ التي جعل الله نجاة هذا العاصي بسببها لم تصل إل
أُذنه بعد.. وربّما تبذر ـ أنت ـ البذرة، ويأتي غيرُك فيسقيها فتُنبت
وتُثمر، لكن إيّاك أن تكون كالكسعي الذي يُضرب به المثل في
النّدامة، حين رمى بسهامه ليلًا فظنّ أنّها لم تصبْ فكسر القوس،
فلمّا أصبح وجدها كلّها قد أصابت الغرض فاغتمّ لكسر القوس غمٌّ
لا يُوصف.. فاحذر أن تكونه! إن للقلوبِ إقبالًا وإدبارًا، وللنفوس
قتامةً وإشراقًا، ومن المصلحة أن تتعاهد المدعوّ وقت إقباله وارتياح
بالكلمات الطيّبات، وتُهاديه وتُلاطفه، وتحتال للوصول إلى قلبه بكل
حيلة لا تذم، «ولأنْ يَهديَ الله بكَ رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمُر
النَّعَمِ»[1].

(قضية المصلحة والمفسدة)

المقصود بالأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكر إنّما هو تحصي
المصالح ودَرْءُ المفاسد، بل إنّما بُعِثَ الرُّسلُ الكرام ـ عليهم الصلا
والسلام ـ من أجل جلب المصالح وتكميلها، وتقليل المفاس
وتعطيلها.

ولهذا إذا عَلِمَ المُسلمُ أنّ أمره بالمعروفِ ونهيه عن المنك
سيترتّب عليه مفسدة في موقفٍ من المواقف، فإنّه يُمنَع من الأم
والنّهي في ذلك الموضع.

(١) البخاري (٣٩٧٣).

وممـا يُروى في هذا الباب أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ خرج مع بعض تلاميذه من دمشق، وفي طريقهم مرّوا ببعض التَّتَر وهم يشربونَ الخمر، فهمَّ بعضُ التلاميذ بالإنكار عليهم، فقال شيخ الإسـلام: دعوهم وما هم فيه. فقالوا: نتركهم ـ رحمك الله ـ على هذا المنكـر؟! قال: نعم؛ إن هؤلاء القـوم لو أفاقوا من سكرِهـم لدخلوا دمشق، فهتكُوا الأعراض، ونهبُوا الأموال، وقتلُوا الرِّجال.

ولا يكـاد يوجد في الدّنيا مصالح مَحْضَة، ولا مفاسد محضة، فالقضيّة قضيّة موازنـة، فإن كانت المصلحة أرجح حُصِّلَتْ، وإذا كانت المفسدةُ أكبر دُفعتْ.

وابْـدَأْ بالمنكَر الكبير قبلَ الصّغير، ودعِ الإنكارَ إذا ترتّب على إنكارك منكرٌ أعظمَ منه. **وهذا هو ما يوافق مقتضى الشّرع والعقل، فإنّ مُقتضاهُما هو تحصيل خير الخيرين، ودفع شرّ الشّرّين.**

*** الاسرار والاعلان بالانكار:**

ومما يتعلّق بالمصلحـة والمفسـدة مسـألـة الإسـرار والإعـلان بالإنـكـار، فإن سلوك أحـد السـبيلين مرتبطٌ بقضيّة المصلحـة والمفسدة، فقد تكون **المصلحة** في إعلان الإنكار، وقد تكون في الإسرار به، فإذا كان صاحب المنكَر مُعْلِنًا مُجاهرًا **فالمصلحة في** الجهر بالإنكار عليه، وإذا كان المنكَر شخصيًا، أو خُشي أن تأخذ

صاحبَ المنكر العزةُ بالإثم، أو خِيْفَ أن يترتَّب على الإعلان بالإنكار منكَرٌ أشدّ؛ **فالمصلحة في الإسرار بالإنكار.**

وقد ورد عن السّلف ـ رضوان الله عنهم ـ قصصٌ عديدةٌ أنكروا فيها علانية؛ لأنّهم رأوا المصلحة في الإعلان:

فمن ذلك ما جاء في الصّحيحين من أن أبا سعيد الخُدْريّ خرج مع مروان بن الحكم إلى المصلّى في يوم العيدِ، قال أبو سعيد: **فلمّا أتينا المصلّى، إذا منبرٌ بناه كثيرُ بنُ الصَّلْتِ، فإذا مروانُ يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي، فجبذتُ بثوبه، فجبذني، فارتفع فخطب قبل الصّلاة. فقلت له: غَيَّرْتُم والله. فقال: أبا سعيدٍ، قد ذهب ما تعلم، فقلتُ: ما أعلمُ والله خيرٌ مما لا أعلمُ**[1].

ومرّةً أخرى خرج مروانُ إلى المصلّى، وقام ليخطب قبل الصلاة، فقام إليه رجلٌ وقال: الصّلاة قبل الخطبة. فقال: **قد تُرِكَ ما هنالك**[2].

وهكذا أنكر عليه علانيةً؛ لأنه مُعْلِنٌ بالمنكرِ، ولأنّ الرّجل ـ كما ذكر النووي ـ[3] كان معتزًّا بظهر قبيلته، ولأنّ مروان سبق أن أنكر عليه أبو سعيد قبل ذلك ـ والله أعلم ـ فأَصَرَّ.

وكم أُنكِرَ على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولعلّ من أصحّ

---

(١) البخاري (٩١٣) ومسلم (٨٨٩).

(٢) رواه مسلم (٤٩).

(٣) انظر شرح مسلم ٢/٢٢.

القصص في ذلك ما رواه الشيخان أنّه لما حدثت خصومةٌ بين عمر بن الخطاب وأحدِ الصّحابة مرّةً من المرّات؛ قال أُبَيُّ بن كعب لعمر: يابن الخطاب، لا تكونَنَّ عذابًا على أصحاب محمد، ﷺ.

ولما نَهى عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عن المُتْعَةِ في الحجّ (أي جمع العمرة والحجّ)؛ قال عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لبَّيكَ اللهم لبيك، لبيك عمرةً متمتّعًا بها إلى الحج. فلمّا قيل له في ذلك؛ قال: أردت أن أُبيّن للنّاس أنّ ما يأمرنا به عثمان مخالفٌ لسنّة النبي، ﷺ[1].

وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يستلم الأركان كلّها في البيت، ولا يكتفي باستلام الركن اليماني أو الحجر الأسود؛ فأنكر عليه ابنُ عباس ـ مع أنّ معاوية كان أميرًا ـ، فقال معاوية: ليس شيءٌ من البيت مهجورًا. فقال ابن عباس: ﴿لقد كانَ لكمْ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. (سورة الأحزاب، الآية: ٢١). وكان الرّسول، ﷺ، لا يستلم إلاّ الركنين: اليمانيّ، والحجر الأسود[2].

ودخل عائذ بن عمرو يومًا على عُبيد بن زياد ـ وكان أميرًا في العراق ـ فقال له: أيّ بني، إنّي سمعت رسول الله، ﷺ، يقول:

---

(١) رواه البخاري (١٥٦٣).

(٢) رواه البخاري (١٦٠٨) ومسلم (١٢٦٩) والترمذي (٨٥٨) وأحمد (١/٣٣٢، ٣٧٢).

«إنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الحُطَمَةُ»[1]، فإيّاك أن تكون منهم. فقال له: اجلسْ فإنّما أنتَ من نُخَالَةِ أصحابِ محمدٍ، ﷺ، فقال: وهل كان لهم نخالة؟! إنّما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم[2]. (يعني: في أمثالك!).

هكذا كان الأسلاف يجهرون بالإنكار ولا يسرّون، عندما يرون أن المقام مقام إعلان، وأن المصلحة في ذلك.

*** من أخطاء الناس في قضية المصلحة والمفسدة:**

إنّ جهلَ كثيرٍ من النّاس بقاعدة الموازنة والتّرجيح بين المصلحة والمفسدةِ أوقعهم في أخطاءٍ كبيرةٍ، وربّما لامُوا غيرهم على فعل الأحسن والأكْمَل، وحمدُوه على فعل الأقلّ؛ لضعف نظرهم، أو لإيثارهم ما يظنونه السّلامة والورعَ؛ لضعف فقههم، وإلاّ فالورع ليس في ترك المشتبه بالمحرّم أو بالمكروه فحسب، بل من الوَرَعِ فعل المشتبه بالمستحب أو بالواجب أيضًا.

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعضُ المتديّنة والمتفقّهة في زماننا ما يلي:

١ ـ أن يدعوهم إيثار السلامة ـ في أنفسهم ـ والخوف من الفتنة

---

(١) الحطمة: العنيف في رعيّته.

(٢) رواه مسلم. (١٨٣٠).

إلى اعتزال مواطن المنكراتِ والبعدِ عنها، مع قدرتهم على غشيانها والإنكار على أصحابِها؛ وذلك خوفًا على أنفسهم من هذه المنكراتِ أن يصل إليهم شيءٌ من رذاذها وغُبارِها، أو يصلَ إلى قلوبهم شيءٌ من ظلمتها وسوادِها.

حقًّا أنّ أصلح النّاسِ إذا اشتغل بالدّعوة إلى الله في أوساطِ المشركين، أو المبتدعة، أو الفسّاق لا يشعر بالسّعادة القلبيّة ولذاذةِ الإيمانِ التي قد يشعر بها غيره من المقيمين بين أهل الخير والفقه والعبادة، ومع ذلك فقد يكون ما يقوم به من العمل والدّعوة أفضل بمراحل ممّا يقومون به، وقد يكون له من الفضلِ والخيرِ ما ليس لهؤلاء.

وإنّ تحمُّل الضّرر اليسير من أجل تحصيلِ مصلحةٍ أعظمَ أمرٌ مطلوبٌ شرعًا وعقلًا، وما يفقده المشتغل بالنّهي عن المنكر من راحة القلب؛ لكثرة رؤيته للمنكَرات، ثم تأثُّر القلب بذلك، وضعف إشراقه، يُعدّ أمرًا يسيرًا بالقياسِ إلى ما يُقابله من المصلحة العظيمة التي هي هدايةُ النّاس، وإقامةُ الحجّة عليهم، وأمرهم بالمعروفِ، ونهيهم عن المنكرِ، وتحمّل فروض الكفاية عن الآخرين، بل قد تكون هذه الأمور من فروض الأعيان عليه ـ على حسب التفصيل السابق في حكم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكرِ.

وكذلك ما يخافه على نفسه من منازعتها له إلى المنكرات،

ودعوته إليها، مع ما يُقابل ذلك من الإيمان والخوفِ من الله.

أمّا من يرى في نفسه ميلًا صريحًا إلى هذه المنكراتِ، ويجد من نفسه الهمَّ بذلك؛ فهذا حريٌّ به البعدِ عنها؛ طلبًا لنجاة نفسه منها.

وهـذا البـاب يتفاوتُ فيه النّاسُ تفاوتًا كبيرًا، وكثير ممّن يغلب عليهم الصّلاح والورَع يُؤثرون سلامة أنفسهم، وينسون أنّ السّلامة تكون أيضًا بالقيامِ على أهل المنكرات ومضَايَقتِهم ورَدْعِهم.

٢ ـ ومن الأخطاء أيضًا ما يُوجد في جماهير طلاب العلم والدّعاة في هذا العصرِ من العـزوف عن تولّي الأعمال التي فيها مصلحة عامّة، والإعراض عن التصدّر للتّدريس أو التّوجيه أو القيادة؛ زُهدًا في السّمعة والجاه، وكراهية للشُّهرة.

فيقول بعضهم: لست أهلًا لهذا. هذا يقوم به غيري مِمّن آتاهم الله القدرة. ومن الظّلم للنّاس أن أقوم بهذا الأمر. إلى غير ذلك من التّعليلات العليلة، والأعذارِ التي لو حاسبَ المتذرِّع بها نفسه حسابًا حقيقيًّا صريحًا لأدرك أنّها لا تستقيمُ ولا تَصِحّ، ولكان هو أوّل الناقدين لها.

والواقع أنّ أكثر الناس زهدًا في هذه الأمور هم أكثر النّاس كفاءة وصلاحية لها ـ في الجملة ـ على ما فيهم من نقصٍ وقصورٍ.

وإنّ تخلّي المخلصين الزّاهـدين في الشّهـرة والجـاه عن هذه الميادين جعلهـا مرتعًـا خصبًـا لكـلّ من لا يصلُح لها: من حَمَلَة

المذاهب الأرضيّة، ومن المتظاهِرين بالخير، وهم على نقيضه، ومن طلاب الشهرة الحريصين على كسب احترام النّاس ومديحِهم وثنائِهم.

وكثيرًا ما تلتبس المثبّطات الشّيطانية المغرية بالرّاحة والقعود بالرّغبة في معالجة الأعمال المريحة الهادئة، كالقراءة والبحث والعبَادَة ونحوها، وتلتبس هذه وتلك باحتقارِ النّفس وازدرائها، حتى لتبدُو هذه الأمور جميعها لصاحبها نوعًا من الزُّهد السّلفيّ الصّحيح، وما هي منه في شيء.

بل المتَّبِع الحريصِ على خير نفسه وخير المسلمين. هو من يبذل ما عنده من العلم والفهم والفقه ـ ولو قلَّ ـ دون أن يدعي ما ليس له، وهو من يزاحم أهل الضّلالة والبدعة في قيادة المجتمعات الإسلاميّة وتوجيهها، ويستفيد من الفرص المواتية في ذلك، مع حرصه الشّديد على سلامة نفسه من التعلّق بالدّنيا والجاه والمكانة عند النّاس، وجهادِه لها في ذلك.

(مهمة الشباب في ذلك المجال)

يتساءل كثيرٌ من الشّباب عن مهمّتهم المطلوبة منهم في مجالِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ. وهذا التّساؤل يدلّ على بداية حسنة، ويُوحي بأنّ الشّباب وضعُوا أرجلَهم في الطّريق بعزم، ويحتاجون فقط إلى مَنْ يُبصِّرهم بواجِبهم.

والحقّ أنّ الكلام عن هذه القضيّة يطول، ولكنْ سأُجْمل الحديث عن أهمّ الواجبات الملقاة على عواتق الشّباب في الآتي:

١ ـ أن يضطلع الشاب بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من منطلق شمولي، فيقوم بما قد يقوم به غيره، ويزيد عليه، بحيث يؤدّي مهمّته في المنزل، وفي المدرسة أو العمل، وفي الحيّ، وفي الشّارع، وفي السّوق، وفي غيره، **مستخدمًا مختلفَ الوسائل**؛ من كلمةٍ، وكتاب، وشريط، **ومقاطعة للأماكن** الّتي فيها فساد، وغير ذلك.

أي أن يجعل الشّابُّ الأمرَ بالمعروف والنّهيَ عن المنكر همًّا ووظيفته في كلّ أحيانه، كلّما أمكنه ذلك. ولئن استطاع الشّباب أن يؤدّوا ذلك على الوجه المطلوب؛ لتختفينَّ ـ بلا ريب ولا تردّد ـ كثيرٌ من المنكَرات، ولتظهرنَّ كثير من السّنن المهجورات، بعون الله تعالى.

٢ ـ أن يواصل الشباب العلماء؛ فإنّ للعالم تأثيرًا كبيرًا في إزالة المنكرات، وبخاصّة المنكرات الرّاسخة المتأصّلة الضاربة بجذورها في المجتمع، التي يصعبُ اقتلاعها على غير العلماءِ، الذين لهم مكانتهم، وكَلِمَتُهم المسموعة، وركنهم الشّديد.

فعلى الشّباب أن يلتفوا حول العلماءِ العامِلين، المتَّبعين للسُّنة، وأن يبلِّغُوهم بما يقع من منكرات، فالعالمُ قد يكون مشغولاً

بدروسه، وارتباطاته الكثيرة، عن الوقوف على تفاصيل ما يقع في المجتمع من المنكرات. فإذا جعل الشّابُ من نفسه واسطةً لإيصال تلك المعلومات إلى العالم ـ هذا على الأقل ـ فإن العالم يكون بذلك مطّلعًا على ما يجري، ويستطيع بالتّالي أن يتّخذ الموقف المناسب.

ولكن على الشّابّ حين يبلّغ العالم عن منكرٍ أن يقدّم له الإثباتات والوثائق الكافية، حتّى كأنّه يراه بعينه، أو يسمعه بأذنه، وألّا يقتصر على مجرّد الظنّ؛ لأنّ الأمر قد يكون على خلاف ما ظهر له.

ووسائل تزويد العلماءِ والدعاةِ وطلبةِ العلم بمعلوماتٍ عن المنكر وسائلُ عديدة، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أن يقدّم الشّابُّ لهم ما يُنْشر من مقالات، أو قصائد، أو كتب، تُخالف الإسلام أو تَطعن فيه، أو تدعو إلى الرّذيلة. إلى غير ذلك. ومتى وُجد لدى الشّباب الاهتمام، والإحساس بالمسئوليّة، والاحتراقِ لهذا الدّين؛ فستأتي الوسائل تباعًا، بطواعيةٍ وانقيادٍ، وأقلّ ما يجب في هذا أن يكون ثمّة شهودٌ عدولٌ على حدوث المنكر وأنّهم رأوه أو سمعوه بأنفسهم، لِقَطْعِ دابر الأقاويل والإشاعات والظّنون.

٣ ـ المشاركة في المجالات الرسمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه قضية مهمّة، فإنّ كثيرًا من الناس يُلْقون بالمسئوليّة

على غيرهم، ويتنصَّلون منها، فيتكلّمون مثلاً عن جهاز الأمرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر، فيقولون: إنّه لم يقم بواجبه، وقد يقول بعضهم: إنَّ كثيرًا من الموظَّفين فيه من كبار السن.. إلخ.

ولكن السؤال الذي يجب طرحه هو: لماذا أخي الشّابّ لم نقم بهذه المهمّة، بدلاً من أن نُنْحي باللائمة على غيرنا؟! إنَّ هذا الجهاز لو كان مدعومًا بعدد كبير من الشّباب الملتزمين الواعِين المدركِين؛ لكان أقوى من أن يقف في وجهه أحد، مهما حُورِبَ، أو وُضعتْ في طريقه العقبات.

لكنْ لمّا تخلّى أبناءُ الأمّة عن مسئوليّتهم، وعزف كثير من الشّباب الصّالحين الجامعيّين عن التوظّف في هذا الجهاز؛ حصلت بعض السّلبياتُ، فعلينا أن ندرك أننا مسئولُون عن هذا التّقصير، وأن نتداركه بقدر المستطاع.

٤ ـ أن نكون عونًا للآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكرِ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وتَعَاوَنُوا على البرِّ والتَّقْوَى﴾. (سورة المائدة، الآية: ٢). وصور التعاون هاهنا متعدّدة.

* فقد يعمل الفرد مع الآمرين بالمعروف بصفته متعاونًا معهم في هذا السبيل.

* وقد يقوم بالتّبليغ عن أيّ منكر تقع عليه عينه، أو تسمعه أُذنه، أو يعلم بوجوده بأيّ وسيلة.

* وقد يدعو للقائمين بهذا العمل حيث إنهم يَتولّون القيام بهذه المهمّة المقدّسة بالنّيابة عنّا جميعًا.

* وقد يذبّ عن أعراضهم من ألسنة الطّاعنين الذين يتناولونهم بغير حقّ - في الغالب -، وبحقّ - في القليل النّادر -.

مع أنهم يتجاهَلُون أخطاء الآخرين من الفئات الأُخْرَى كافة.. وكأنّ من شروط رجل الحسبة أن يكون معصومًا!

* وقد يواصلهم بالزّيارة في مواقع عملهم فيحدّثهم ويستمع إليهم، ويبثّهم ما في نفسه من آراءٍ أو ملحوظات، ويُقيم روابط الودّ والمحبّة معهم، ليشعر هؤلاء الجنود المجهولون أنّ المجتمع يثمّن جهدهم، ويقدّر سهرهم وعناءهم!

* فإن تعذّر عليك هذا كلّه - أخي - فلا أقلّ من الالتزام بوصية رسول الله، ﷺ، - لأبي ذرٍّ - كما في البخاري: «تَكفّ شرّك عن النّاس، فإنّها صدقة منك على نفسك»[1].

ولا نرضى لك بحالٍ أن تنحاز إلى فئة المستهزئين السّاخرين الذين توعّدهم الله - تعالى - فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾. (سورة الحجر، الآية: ٩٥).

وقال: ﴿ولئِن سألتَهم ليقُولُنّ إنّما كُنّا نَخوضُ ونَلعبُ، قلْ أبالله

---

(١) البخاري (٢٣٨٢).

وآياتِهِ ورسولِهِ كنتم تستهزِئُونَ لا تَعتذِرُوا قد كَفَرْتم بعد إيمانِكم﴾.

(سورة التوبة، الآيتان: ٦٥، ٦٦).

(المرأة ومقاومة المنكر)

كما أنَّ المسلمَ مطالبٌ بالأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ، فكذلك المرأةُ المسلمةُ مُطالبة بالقيامِ بمهمّتها في ذلك الباب.

ومن هنا فإنّ على الأخت المسلمة الملتزمة بالدّين الدّاعية الوَاعِية أن تدخلَ في المجَالاَت المُبَاحة، وأن تؤدّي مهمّتها، وتقومَ بمسئوليتها، في هذه المجالات.

فينبغي أن تدخلَ في مجال التَعليم: عن طريق الدّراسة والتْعلّم، والتّعليم، والتّوجيه، والإدارة، وتحضيرِ الدّراسات العليا، وغير ذلك.

وفي مجال الجمعيّات الخيريّة: مشاركةً، وقيادة، وتوجيهًا، ومحاضرةً، وغير ذلك.

وفي مجال المناسبات العامّة: نُصحًا وإرشادًا، وتوعيةً، ودعوة إلى الله بمختلف الطّرق الشّرعيّة.

وفي مجال المباح لها من الإعلام: بالكتابة في الصّحف، والمجلّات، سواء كانت تلك الكتابة دعوة إلى الله، أو احتسابًا على الكتابات المضلّلة وردًّا عليها، أو نحو ذلك.

وفي مجال التأليف: بإصدار كُتبٍ موجَّهة إلى المرأة المسلمة،

تُعالج قضايا المرأة، وتزيدُها وعيًا بدينها، وتنبّهها إلى ما يُحاك ضدّها من المؤامرات.

كلّ هذه المجالات التي أصبحَ الأعداءُ يُحاربون من خلالها الإسلام، ينبغي للمستقيمات الغيورات أن يدخلن فيها، ويحاولن التّغيير في المجتمع من خلالها؛ لأنّ هذه المجالاّت حياديّة، فإذا تولاّها أهل الفساد؛ كان دورها تخريبيًا، وإذا تولاّها أهل الصّلاح؛ كان دورها إصلاحيًا.

إنّ اكتفاء الغيورات المؤمنات بالشّكوى والتّوجّع من المنكرات التي تحدث ليس حلًّا لمشكلات الأمّة، وإنّما الحلّ أن يكون هناك خطوات عملية جادّة للتأثير في الوَاقع، وأن يكون بين الصّالحات شخصيات معروفة، لها نشاطٌ إسلاميٌّ قويٌّ، مجاهدة، داعية، آمرةٌ بالمعروفِ، ناهيةٌ عن المنكر، تَكتب، وتُحاضر، وتُدرّس، وتُوجّه، وتقوم بواجبها في مجالها المناسب.

والتّفريط كلّ التّفريط، والرّزيّة كلّ الرّزيّة؛ أن ينطوي الصّالحات على أنفسهنَّ، ويخرجن من السّاحة، ويدعن الضّالات المنحرفات يدرن الدّفّة، ويسرن بالمجتمع إلى الهاوية.

إنّ ثمّة نساء موتورات منهزمات، يحملن فكرًا تغريبيًّا تخريبيًّا، ونساء بليدات مقصّرات لا يعنيهن أمر الأمّة، ونساء يوجههنَّ أزواجُهن المنافقون إلى ترويجِ الفساد الفكريّ والخُلقيّ بين الفتيات.

فأحذِّر الأخوات الدّاعيات إلى الله من أن يتركن الميدان لهؤلاء، فتتلوث البيئة بجراثيم الانحرافِ والضّلال؛ فيعضضن بنان النَّدم إذ لاتَ حين مَنْدَمٍ ، فإنّ أخشى ما يخشاه المصلحون اليوم هو أن يأتينا الشرّ من قبل المرأة؛ لأنّ أعداء الإسلام يركّزون على محاولة إفساد المرأة؛ إذ بفسادها يكون فساد المجتمع قاطبةً، كما هو مُشاهد عيانًا في كثير من المجتمعات.

فهل تعي المؤمنةُ حجم المسئوليّة الملقاة على عاتقها وتنفر لمقاومة المنكر ونشر المعروف؟!

(معوقات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

كثيرٌ من النّاس ـ ولا سيّما الشّباب ـ يُحْجِمون عن الأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ لأسبابٍ ما كان ينبغي أن تقف عائقًا في طريقهم، ولا أن تصدّهم عن غايتهم، أو تقعد بهم عن أداء واجبهم؛ فهي أسباب وهميّة أو ضعيفة أو ناتجةٍ عن جهلٍ، فلنستعرض أبرزها، مع بيان شيء من علاجها:

١ ـ **الخجل**: فإنّ كثيرين ـ لعدم تعوّدهم ـ يُعانُونَ من الخوف والخجلِ والهيبةِ من النّاسِ ، وهذا الشّعور لا يزول إلّا بالممارسة العمليّة، فعلى المسلم أن يكسِرَ هذا الحاجز، وأن يبدأ الطّريق، وسوف يزول الخجل تدريجيًا، بصورة تلقائيّة.

٢ - يقول بعض الشباب: أنا عاص، فكيف أغير المنكر وأنا كذلك؟! فنقول له: غَيِّر المنكر، وإن كنت عاصيًا، فقد قال الله - تعالى - عن بني إسرائيل: **﴿كَانُوا لا يَتَناهَوْنَ عن منكرٍ فَعَلُوه﴾**. (سورة المائدة، الآية: ٧٩). ممّا يدلّ على أنّ فاعل المنكَرِ مطالَب بالإنكار، وهذا مذهب عامّة العلماءِ، بل حكى بعضهم الإجماع عليه - ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون -.

ولو لم يَعِظْ في الناس مَنْ هو مُذْنب
فَمَنْ يعظُ العاصين بعد محمدِ!؟

ووقوعك في معصيةٍ لا يسوغ لك الوقوع في معصية أخرى، **أعني معصية السّكوت عليها وعدم إنكارها.**

٣ - وقد يقول قائل: أنا لست عاصيًا، ولكنّ لي أخاً عاصيًا، فكيف أُنكر على الناس وهم يرون أخي **واقعًا** فيما يَقْتِرفُونَ من الذّنوب؟!

ويقال له: هذا ليس بعذرٍ؛ **لأنّك** لست سُلطانًا على **قلب أخيك**، فقد أمرته ونهيته، فلم يمتثل، ومضيْتَ تأمر غيره وتنهاه، **فامضِ في ذلك ولا** تَكْتَرِث للذين يُعَيِّرونك بأخيك، فإنّهم إنّما يُريدون أن يُؤذوك، ويَثْنُوكَ عن واجبك؛ لتتركهم في عصيانهم، مع علمهم بأنّك حاولتَ في هداية أخيكَ، ولكن **﴿إنّك لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾** (سورة القصص، الآية: ٥٦).

فلا تثريبَ عليك وإن كان أخاك. ﴿ولا تزرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى﴾.
(سورة الأنعام، الآية: ١٦٤، الإسراء، الآية: ١٥، فاطر، الآية: ١٨، الزمر، الآية: ٧).

٤ - **وربما قال اخر:** كيف آمُرُ بالمعروف وأنهى عن المنكر ولن يُسمع منّي، ولن يزولَ المنكرُ بمحاولتي التّغيير، فما الدّاعي أن أكلِّف نفسي بدون نتيجة؟!

وكأن هذا الأخ يريد أن تزول المنكرات بمجرد كلمة يقولها، وهذا - بدون شكّ - تصوّر غير سليم، ونظرة غير سديدة؛ فإنّ هذا التّغيير الكاملَ التلقائيّ بمجرّد كلمة أو جَرَّةِ قلم لا يملكه حتّى الحاكم، وإنّما الذي تقتضيه طبيعة الأمور أن كلّ شيء لابدّ فيه من مراعاة التّدرّج، حتى يتمّ الوصول إلى النتيجة. والمهمّ هو أن يكون لدينا النيّةُ الصّادقة، والعزمُ الأكيدُ، لإزالة المنكرات، والبدايةُ الصّحيحة في هذا السّبيل.

أمّا أن نطمع في أن تطهر السّاحة من المنكرات في لحظةٍ فهذا غير ممكن!! فإنّ للمنكر مؤيِّدين من المنافقين والفاسقين، وانتشارًا واسعًا في الأمّة، وتأصّلاً في نفوسهم.

* وأنت أيّها الأخُ المُصْلح حين تُنكر المنكَر فلا تظنّ - مهما كانت النّتيجة ضعيفةً - أنّك لم تؤثّر، بل قد حقّقت عدّة مكاسب:

أولها: أنّك قاومت المنكر في نفسك؛ لأنّك مهدَّدٌ بأن يصل

المنكر إليك، أيْ أن تقع فيه، فإذا أنكرته سلمتَ من مقارفته بإذن الله ـ تعالى ـ.

ثانيها: نوالُ الأجرِ من الله ـ تعالى ـ على القيامِ بهذه الفريضَة، وإحياء تلك الشّعيرة.

ثالثها: أنّك قد تُقلّل من المنكر.

رابعها: أنّك قد تُزيله.

خامسها: أنّك ـ على أقلّ تقدير ـ قد تمنع حدوث غيره من المنكرات؛ لأنّ الذي يراك أنكرتَ منكرًا واقعًا؛ لا يستطيع أن يفرضَ عليك منكرًا جديدًا.

كما أنّ الإنكار يكون سببًا في عدم استقرار المنكرات في المجتمع، حتى تَصبحَ كالمعروفِ، ذلك أنّ المنكر إذا نشأ عليه الصّغير، وهرم عليه الكبير، ولم يوجد من يُنكره؛ فإنّه يُصبح حقًّا ومعروفًا عند النّاس، يستغربُون تركه، ويتحاضُّون على فعله. أمّا إذا وُجد في المجتمع أُولو بقيةٍ يَنْهَوْنَ عن الفسادِ، ويهتِفُون في النّاس بأنّ ذلك منكرٌ وشرٌّ، فهذا يكفي لحماية المجتمع من استمراء المنكر، وانقلاب المفهومَات، واختلال الموازين ـ وإن لم يستطع أولئك المصلِحُون تغيير المنكرِ ـ، وقد يأتي من يغيّره ويزيله بعدهم.

٥ ـ وبعض النّاس يخافون من الأذى، والأذى لابدّ منه في هذا الطّريق، ﴿لتُبْلَوُنَّ في أمْوالِكُم وأنفُسِكُم ولتَسْمَعُنَّ من الذينَ أوتُوا

الكتابَ من قبلِكُم ومنَ الذِينَ أشْركُوا أذًى كثيرًا﴾. (سورة آل عمران، الآية: ١٨٦). ولهذا أمرَ لقمانُ ابنَه بالصّبر في ذلك فقال: ﴿يا بُني أقِمِ الصّلاةَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكَرِ واصبِرْ على ما أصابَكَ﴾. (سورة لقمان، الآية: ١٧).

والرّسول، ﷺ، يقول: «المؤمن الذي يُخالِطُ النّاسَ ويَصْبِرُ على أذاهم خيرٌ من الذي لا يُخالطهم ولا يَصبِرُ على أذاهم»[١]. فالأذى دليل على أنّ المــرء ـ إن شاءالله ـ مؤمنٌ، وأنّــه يتحلّى بصفـاتِ المؤمنين؛ لأنّ المؤمن يُبتلى على قدر إيمانهِ.

٦ ـ **وهنـاك من يحجم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة أنّـه يخشى أن تحدث فتنـة**. ونقـول لهـذا: إنّ الفتنة هي تركُ الأمرِ بالمعــروفِ والنّهي عن المنكـرِ، ولقـد عاب الله ـ تعـالى ـ على المنافِقين أنّهم تركُوا الخروجَ مع النبي، ﷺ، للغزو، بحجّة خوف الفتنة. ﴿ومنهم مَنْ يقوُلُ ائذَنْ لِي ولا تَفْتِنّي ألاَ في الفتنةِ سَقَطُوا﴾. (سورة التوبة، الآية: ٤٩).

فيا مَنْ ترك الإنكارَ خوفًا من الفتنة ـ بزعمه ـ إنّ أمامك فتنة قَائمَة واقعـة، وهي المنكَـر، فكيفَ تتـرك إزالتهـا خشيةً من فتنةٍ متوقَّعة محتملة، قد تقـع وقـد لا تقع؟! وقد يكون خوفُ الفتنة من سوء التّقديرِ، أو الجُبن، فإنّ الجبان يخاف من كلّ شيء، حتى من ظلّه،

---

(١) رواه أحمد (٢/٤٣) والترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجه (٤٠٣٢).

ولذلك لا ينكر شيئًا، وقد قال الشاعر:

يرى الجبناء أن العجز عقلٌ
وتلكَ سجِيَّةُ الطَّبْعِ اللئيم

(نماذج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

تضمَّن ما سبق من الحديث عدّة نماذج حيّة للأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، وهذه نماذج أُخْرى، لعلّنا نَعِي موطن القدوة والعبرة منها:

الأول: شيخ الإسلام ابن تيمية الذي استطاع أن يكسب قلوبَ الناس؛ بصدْقِه، ونُصحه، وبذله الجهدَ حتّى في مصالح النّاس الدنيويّة. فقد كان ـ كما ذكر الذهبيُّ ـ يتعبُ في خدمة النّاسِ ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، بلسانه، وقلمه، وذلك ببذل جاهه في دفع الظّلم، ونفع الناسِ، وتحصيل مصالِحهم، وما شابَه ذلك من وجوه الخدمة والنّصح للمسلمين، بقدر ما يستطيع.

ومكانته الكبيرة في نفوس الناس جعلت له كلمةً مسموعةً؛ ولذلك كان يأمرُ بالمعروفِ، وينهى عن المنكر، على المستوى الرّفيع. ومما يذكر في ذلك أنه ذهب إلى السّلطان المملوكي في مصر، لما جاء التّتَرُ إلى بلاد المسلمين، وقد رأى أنّ سلطان مصر أبطأ في المجيء إلى الشّام، فقال له: إن كنتم أعرضتم عن الشّام وتركتموه، فإنّنا نجعل له من يحوطه ويحميه في زمن الخوف،

ويستغله في زمن الأمن، ثم تلا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وإن تَتَوَلّوْا يَسْتَبْدِلْ قومًا غيركُم ثمّ لا يكُونُوا أمثالَكم﴾. (سورة محمد، الآية: ٣٨).

وكان ممّا قاله له أيضًا: إنّه لو قُدِّر أنكم لستم حُكّامَ الشّام ولا ملوكه، واستنصركم أهلُه؛ لوجب عليكم النّصر، فكيف وأنتم حكامه وملوكه، لا يسعكم إلاّ الخروج!! فخرج السّلطان إلى الشّام، وخرج معه الناسُ.

وكان شيخ الإسلام يخرج مع الناس في المعارك، يُثبّت قلوبهم بالوعظِ والتّذكير، حتّى إنّه كان يقول لهم: إنّكم منصورون. فيقولون له: قل: ـ إن شاءالله ـ فيقول: ـ إن شاء الله ـ تحقيقًا، لا تعليقًا. وهكذا كان. فقد انتصر المسلمون بعون الله على التّتر.

وعلى هذا النّحو كان ـ رحمه الله ـ يعيش همومَ الأمّة على مستوى الأفراد، وعلى المستوى الجماعيّ؛ فيؤثّر في مسيرة الأمّة، ويُشاركها في جهادِها وأفراحِها وأتراحِها.

الثاني: العزّ بن عبدالسلام، المعروف بسلطان العلماء، وله عدّة مواقف جليلة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكرِ، ومن ذلك موقفه مع سلطان الدّيار المصرية، فقد خرج ذلك السلطان في يوم العيد في موكب عظيم، والشّرطة مصطفّون على جوانب الطّريق، وحاشيته يُحِيطُون به، والأمراءُ يقبّلون الأرضَ بين يديه، والعزّ ـ رحمه الله ـ يرى ذلك، فنادى السّلطان قائلاً: يا أيوب! ما حجّتك عند الله

إذا قال لك: ألم أُبوِّىء لك مُلك مصر تُبيح الخمور؟ فقال: أوَيحدث هذا؟ فقال: نعم، في مكان كذا وكذا حانة يباع فيها الخمر. فقال السّلطان: يا سيّدي هذا أنا ما عملته، هذا من عهد أبي. فهزَّ العزّ بن عبدالسلام رأسه وقال: أنت من الذين يقولون: إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة؟! فأصدر السّلطان أمرًا بإبطال الحانة، ومنع بيع الخمور. وانتشر الخبر بين الناسِ. ورجعَ العزّ إلى مجلس درسه، فجاءه أحد تلاميذه يُقال له (الباجي)، فسأله قائلاً: يا سيدي كيف الحالُ؟ فقال: يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلّا تكبر نفسه فتؤذيه. فقال: يا سيدِي! أما خفتَه؟ فقال: والله يا بُنيّ لقد استحضرتُ عظمة الله ـ تعالى ـ، فصار السّلطان أمامي كالقطّ.

الثالث: المنذر بن سعيد البلوطي (سلطان الأندلس)، وله مواقفُ عجيبةٌ، منها الموقفُ التالي:

كان الخليفةُ عبدالرحمن الناصر كَلِفًا بالعمارة، وإقامة المعالم، وتشييد الدُّور، ومن ذلك أنّه بنى مدينة الزّهراءِ، واستفرغ جهده في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها،حتى لقد ترتّب على اهتمامه بذلك الأمر وإشرافه عليه بنفسه أن تأخّر عن صلاة الجمعة ثلاثةِ أسابيعَ متوالية، فلم يصلّها مع المنذر بن سعيد ـ وكان يتولّى الخِطابة والقضاء ـ فأراد المنذرُ أن يعظ الخليفة، ويكسر من غروره، ويحاسبه على إنفاقه الأموال الطائلة في التشييد والعمارة، وعلى

انشغاله بذلك عن الإقبال على الله.

فلما كان يوم الجمعة، وحضر الخليفة، صعد المنذر المنبر، فبدأ الخطبة بقول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بكلّ رِيعٍ آية تَعْبثُونَ. وتَتّخِذُونَ مَصَانعَ لعلّكم تَخْلُدُون. وإذا بَطَشْتم بَطِشْتُم جبّارين. فاتّقوا الله وأطيعُونِ. واتّقوا الذي أمدّكُم بما تعلمون. أمدَّكم بأنعامٍ وبنين. وجناتٍ وعيون. إنّي أخاف عليكُم عذابَ يومٍ عظيمٍ﴾. (سورة الشعراء، الآيات: ١٢٨ ـ ١٣٥). واسترسل يقول: ولا تقولوا: ﴿سواء علينا أَوَعَظْتَ أم لم تكن من الواعظِينَ. إنْ هذا إلاّ خُلُق الأوّلين وما نحن بمعذَّبين﴾. (سورة الشعراء، الآيات: ١٣٦ ـ ١٣٨). ﴿قُلْ متاعُ الدّنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتّقى ولا تُظلَمُونَ فتيلاً﴾. (سورة النساء، الآية: ٧٧). ومضى يذمّ الإسراف في تشييد البناء، والعناية بالزّخرف، بلهجة شديدة، ثمّ تلا قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿أَفَمنْ أَسَّسَ بنْيانَهُ على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ أمّ مَنْ أَسَّسَ بنيانه على شَفَا جُرفٍ هارٍ فإنهارَ به في نارِ جهنّم والله لا يهدي القومَ الظّالمين. لا يزالُ بُنيانهُم الذِي بَنوا رِيبةً في قلوبِهم إلاّ أن تَقطَّعَ قلوبُهم﴾. (سورة التوبة، الآيتان: ١٠٩، ١١٠).

وأتى بما يُشَاكِل هذا المعنى؛ من التّخويف بالموتِ وفُجَاءَتِه، والتّزهيد في الدّنيا، والتّرغيب في الآخرةِ، وأسهبَ في ذلك، وأضاف إليه ما حضره من الآيات القرآنية، والأحاديث، وآثار

السّلف، وأقوال الحكماء والشعراء وغير ذلك، حتّى بلغ التأثر بالنّاس مبلغه، وضَجُّوا بالبكاءِ، وكان للخليفة من ذلك نصيبٌ كبيرٌ. إلّا أنّه وجد في نفسه على المنذِرِ، وشكا إلى ولده الحَكَم ما لقيه من الشّيخ، وقال: والله لقد تعمَّدَني بالكلام، وقد أسرفَ عليّ، وبالغ في تَقْرِيعِي. وأقسم ألاّ يُصلّي وراءه مرّةً أخرى، وصار يُصلّي وراء أحمد بن مطرِّف خطيب جامع قرطبة.

هذه هي أقصى عقوبة كان بإمكانه أن ينزلها بالمنذر بن سعيد؛ لأنّه يعرف له مكانته وقدره.

فرحم الله أولئك العلماء العاملين، الآمرين بالمعروف، النّاهين عن المنكر، غير خائفين في الله لومةَ لائمٍ، أو جبروت حاكم.

إنّهم قومٌ شعروا بثقل الأمانة المُلقاة على عواتِقِهم؛ فشمّروا لحملها. وأيقنوا بحفظ الله لهم وتأييده إيّاهم؛ فبذلوا في سبيل إظهار دينه كلّ ما يَمْلِكُون، ونصحُوا للأمّة حقّ النّصح، فلا عدِمتْ أمثالهم الأمّةُ، إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومن عليها.

الفهرس